مدينة بلا أرواح

سامر علي ريمة

قصص قصيرة

مدينة بلا أرواح

وقصص أخرى

سامر علي ريمه

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: مدينة بلا أرواح.

المؤلف: سامر علي ريّة

التصنيف: أدب ـ قصص قصيرة.

تاريخ النشر: 2024 .

رقم الطبعة: الأولى.

978-9933-0-1389-9 I.S.B.N

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف .

الصـــراع

في ذلك المساء الكانوني البارد، جلس الكاتب الكهل وراء طاولته الخشبية العتيقة. كان منهكاً متعباً قد حطمه اليأس ودوران الأيام الرتيبة، ومرور الليالي الباردة الفارغة؛ ولم يجد من ملاذ له إلا كرسيه العجوز الذي طالما سعد بصحبته، وأوراقه الصفراء التي شارفت على الهلاك.

أمسك القلم بأصابع مترددة، ونظر بعينين متعبتين إلى الأوراق، وإلى القلم الساكن بين أصابعه النحيلة.

كانت السماء قد فتحت أبوابها في الخارج، والغرفة التي تحتويه كانت باردة كأنها قبر. أدار نظره في أرجائها؛ لم يكن هناك أثاث كثير يستحق أن يذكر أو أن يسمى (أثاث)؛ مشجبٌ علقت عليه سترته البالية، وطاولة وكرسي وبساط مهترىء، وكومة كتب متنوعة مرصوصة في زاويا الغرفة بلا عناية أوترتيب. وقع بصره على كومة الكتب، فارتعش بعنفٍ وانكمش وراء طاولته، ثم أغمض عينيه وشرد بعيداً، ولما طارت به الذاكرة وكادت تحلق به عالياً، تذكر قلمه الساكن بين أصابعه فشدَّ عليه، وأحس بأنه قد استمد منه القوة التي بدأت منذ زمنٍ بعيدٍ تتسرب من بين جنبيه، ثم عاد بفكره وذاكرته المنهكة إلى مؤلفاته السابقة واستعرضها في لمحات سريعة... روايات .... قصص..... مقالات ودراسات، وبعض الخواطر والقصائد الخفيفة. جميع مؤلفاته أخذت تعرض نفسها في ذاكرته التي تجمدت فجأة عند بعض رواياته وقصصه. كانت معظم شخصيات رواياته بائسة ومقهورة؛ يطحنها الخوف، ويشتتها اليأس وتسكنها المرارة. وجوه ضيقة وعيون غائرة تحدق إليه من بين أوراق مؤلفاته، تصرخ وتصرخ، وجوه أخرى محمرة لها عيون كعيون القطط الغاضبة، تقهقه تارةً وتضحك تارةً، ثم تصرخ تارةً أخرى. عيون كثيرة تتطلع إليه، عيون حزينة كما في بعض رواياته، وعيون شريرة، وعيون أخرى طيبة. كل الشخصيات التي ابتكرها طوال حياته أخذت تقفز من فوق الورق، وتخرج من الجدران، وتصعد من باطن الأرض، والغرفة الباردة الفارغة تحولت كلياً وأصبحت غير الغرفة التي يعرفها. الجدران اصطبغت بلون أحمر، والأرض كأنها الجمر الملتهب، والطاولة العتيقة تحولت إلى قفص اتهام، والمشجب التي علقت عليه السترة البالية انقلب إلى حبل مشنقة. الغرفة الفارغة اكتظت بالعيون والوجوه، وتصاعدت في جوها الأنفاس الحارة الملتهبة.

فرك عينيه ليتأكد من صدق ما رآه، وسأل نفسه: ـ **(هل أنا في حلم؟! وهل هذه قاعة محكمة؟! ... ما كل تلك الوجوه التي تنظر إلي؟!).**

وفجأة انشق الجدار من المنتصف، انشق بشكل طولي وانفصل كل شق عن الشق الآخر، والكاتب يترقب غير مصدق ما يشهد. رأى بعض الناس يخرجون من الجدار ويتجهون نحوه مباشرةً، يتقدمهم شابٌ تقدح عيناه غضباً؛ ووجد نفسه فجأةً في قفص الاتهام، فصاح بجزعٍ: ـ من أنتم؟!

أجاب الشاب: نحن صنيعتك ...ألا تعرفنا؟

ـ أنا لا أعرفكم حقاً ...من أنتم؟ وما أنتم؟!

قال الشاب بحنق: هل تتجاهلنا حقاً... أم أن ذاكرتك قد تراكم عليها غبار النسيان؟

وأضاف بعد لحظة صمتٍ مشحونةٍ بالتوتر: نحن أبطال روايتك " الخائنون"...هل عرفتنا الآن؟

ـ أأ.. نعم لقد عرفتكم..... ولكن من أنت أيها الشاب؟

ـ أنا حامد عرفان.

نظر إلى حامد عرفان ملياً، ثم أطرق رأسه هرباً من نظرات حامد الذي أخذ يتطلع إليه بازدراءٍ وهو يقول:

ـ ويحك أيها الكاتب الوضيع .... ماذا فعلت بي؟ .... لم حرمتني الزواج ممن أحب؟ أمن أجل تلك القذارة التي يسمونها المال؟!

هزَّ رأسه بعنفٍ، ثم رفعه ليشاهد الأغا عباس يخرج من إحدى زوايا الغرفة فجأةً، بيده السوط الذي لا يفارقه والدماء تقطر منه؛ هزَّ الآغا قامته بسخريةٍ ونظر إليه تلك النظرات القاسية الجافة التي كان ينظر بها إلى الفلاحين، ثم تغيرت تلك النظرات وارتسمت على وجهه القاسي ابتسامة ساخرة وقال: ـ إنك مثال الكاتب المطيع حقاً، لقد جعلت سلطتي تتوطد ونفوذي يكبر، وهيمنتي على الضعفاء تزداد وتعظم حتى نهاية الرواية.

وارتفع صدى ضحكته ليشحن جو الغرفة بالمزيد من التوتر، ثم اختفى فجأةً كما ظهر. نظر الكاتب إلى الزاوية التي خرج منها الأغا، ففاجأته نظرات باردة مخيفة من عينين رماديتين، وظهر أنور السعيد وهو يفرقع أصابعه كعادته؛ نظر إليه تلك النظرات الجامدة المخيفة ثم اختفى؛ إنها شخصية لا قيمة لها في الرواية، تعيش على هامش الحياة، ولكنها مفيدة في بعض الأحيان التي تظهر فيها، وحضورها يكوم لازماً في بعض المواقف.

أخذ يفرك عينيه مجدداً وقد هاله ما رآه، بينما تحولت تلك الشخصيات التي ملأت المكان إلى وجوه وعيون تحدق إليه، وأظلمت الغرفة فجأة، وأخذت تلك الوجوه تدور حوله وتنظر إليه؛ وجه المعلم نوري الملقب بزير النساء، ووجه مريم الفلاحة التي وقعت في شراك الأغا عباس، ثم وجه سعيد حسون الذي فرَّ من جحيم الضيعة وهاجر إلى مدينة الأحلام. وجوه ووجوه؛ معظمها كان يصيح بغضبٍ وحنقٍ، وبعضها بلا مبالاة، والبعض الآخر بسخرية وتهكم.

ضرب على الطاولة بقبضته، ثم صاح محتجاً: ـ كفى أرجوكم ... إرحموني.... أنا لا ذنب لي في ذلك.

لكن الوجوه المعتمة أبت أن تصمت، بل زاد لغطها، وارتفع صراخها وعلا نحيبها، فعاد يصيح والدموع تكاد تطفر من عينيه: ـ قلت لكم أنه لا ذنب لي ... إن الظروف التي كنت أعيشها هي من فرضت آراءها عليَّ..... أرجوكم كفى .... بالله عليكم أن تصمتوا.

وكأنما تلك الوجوه رقتّ لحاله، فاختفت تماماً وعاد البرد والهدوء يشمل الغرفة؛ استيقظ من غيبوبته وأخذ يحدق في الجدران وهو يرتعد، ثم ما لبث أن استكان وأخذ يتنفس بانتظام، وظل على صمته برهة قصيرة قبل أن يقول هامساً وكأنما يخشى أن يسمعه أحد: ـ سأرسم شخصيات جديدة.

ـ ولم لا........قالها بصوت مرتفع.

ثم عاد يقول هامساً وهو يتلفت حوله: ـ لكنها لن تكون معتمة وغارقة في الذل والهوان، بل ستكون قوية لها نظرات يمتزج فيها الجرأة والإصرار، والغضب والإرادة.

ثم ما لبث أن خط على الورق بضع كلمات، ثم توقف وأخذ يسأل نفسه: **(ولكن ماذا أكتب؟ وعن ماذا؟ أين الأفكار؟ أين الطريق؟ .... من أين أبدأ؟ ... هل أكتب عن المال وعبيده؟).**

رنت كلمة المال في أذنيه رنيناً عجيباً ذكره بالماضي.... الماضي البعيد القريب؛ عندما كانت الابتسامة لا تفارق شفتيه، وسمات الحزن لم تقلق محياه يوماً. كان يعيش حياة هانئة مترفة مع زوجته التي تكبره بعشرة أعوام؛ كانت أياماً جميلة عاشها يرفل بالنعيم حيث تمتع بثروة والد زوجته الذي كان كريماً معه، وهو بدوره لم يكن طامعاً بمال الرجل الذي جعله المدير العام لإحدى شركاته، على الرغم من عدم امتلاكه الخبرة الكافية في تلك المجالات، وعلى الرغم من ذلك فقد عمل بجدٍ وتمتع كثيراً.

صحا من شروده العميق وانتبه لنفسه، ولم يدرِ لم تذكر الماضي، ولماذا فتح صفحة قديمة كان قد طواها في مجاهل ذاكرته. كانت تلك الأيام نقطة انعطاف في حياته؛ ففيها انتقل من دون تخطيط مسبق، من الفقر المدقع الذي كان يرزح تحت وطأته، إلى الثراء والتمتع بمباهج الحياة في عالم جديد لم يكن يتصور يوماً أنه موجود على أرض الواقع. لقد جعلته الحياة الجديدة السعيدة يلقي بأفكاره ومعتقداته خلف ظهره، وكأنه لم يؤمن بها يوماً ويتبناها كأمرٍ مصيري لا تستقيم حياته إلا بالتشبث بها والدفاع عنها.

تقلب بعد ذلك في أحضان الهناءة ورغد العيش، وتحول إلى رجل آخر غير الذي كان. كان يسخر كثيراً من حياته الماضية، من شظف العيش الذي كان يقاسيه وينافح عنه؛ يقهقه ضاحكاً عندما كانت تمر بذاكرته تلك

الليالي التي كان يسامر فيها القمر ويناقشه ... يحادثه، يلملم أفكاره في هدوء الليل لينظمها في مقالة أو قصيدة أو أقصوصة يبث فيها آراءه التي كان يعتبرها دستور حياته الذي لا يقبل الخطأ.

(المال نقمة قبل أن يكون نعمة. إنها مفسد الأخلاق، مسبب النزاع بين شعوب الأرض في شرقها وغربها، ومحرك الشرور التي تختبىء في غياهب النفوس. المال ليس إلا وسيلة للبقاء على قيد الحياة، ويجب أن يتم استعماله وفق ضوابط صارمة جداً. ليس المال إلا شرٌ وحربٌ وشقاق بين القلوب المتآلفة، إنه فوهة الجحيم، ونار تنتشر في هشيم النفوس الضعيفة....).

خلال تلك الفترة الذهبية كتب روايته "الخائنون" أدارظهره من خلالها لكل ما كان يؤمن به... لدستور حياته الذي لا يقبل الخطأ! وغرق في لجة الجحيم الذي كان يكفر به.

ذات ليلة صيفية ارتفع صوت ضحكاته وملأت أركان الحديقة الوارفة؛ سألته زوجته عن سبب ضحكه الغريب، فقهقه ساخراً من نفسه وقال: ـ هل ترين هذا الجحيم الذي نعيش في كنفه؟

نظرت إليه مستنكرة، فقال وهو يجوب بنظره في أرجاء الحديقة المترامية الأطراف: ـ أكرم به من جحيم....

أضاف حانقاً فجأة: ... لقد صرفت شطراً من حياتي أحيك الأكاذيب حول نفسي لأصنع منها شرنقةً أتقوقع فيها كي لا أرى العالم الحقيقي الذي لم أستطع أن أبلغ أعتابه؛ إنها وسائل العاجزين، وهذر من أعيتهم الحيلة فلم يستطيعوا أن يصلوا إلى ما وصل إليه غيرهم.

لم تفهم زوجته شيئاً من هلوساته المفاجئة، ولم يكن يريد لها أن تفهم ما يقوله. كان يعنف نفسه فقط، وينتقد حماقاته السابقة وضلاله القديم.

تنهد بعمقٍ وقد حاصرت الذكريات عقله. كيف حدث ما حدث بعد ذلك؟! كيف عاد بمحض إرادته إلى مشروعه القديم؟ عاد ليتشبث مجدداً بما ألقاه في الحضيض؛ هل هي صحوة غافل ساقته الأقدار إلى دنيا كان يزدريها ثم وجد نفسه في غمارها يتذوق طيب أيامها، ويرشف من عسلها المخدر؟ كيف صحا من غفلته وخرج من دنياه الجميلة، وعاد إلى قعر المجتمع؟! إنه حتى الأن لا يدري لماذا قرر الانفصال عن زوجته، وما الذي جعله يتخذ قراره بترك تلك الحياة الرغيدة والعودة إلى حياة الفقر والتشرد!

خرج من قصره المنيف ذات صباح ربيعي؛ لم يحمل معه شيئاً من متاعه الفاخر؛ خرج بجيوب فارغة، ولم يعد بعد ذلك. رجع إلى غرفته القديمة البائسة، وإلى كتبه وكراساته وقصاصات أوراقة التي كان يضمنها بعض تلك

الأفكار التي كانت تخطر بباله كل حين. **(هل فعلت الصواب في ذلك الصباح الربيعي؟)** سأل نفسه أكثر من مرة، ولم يتلق رداً. هل عدت إلى رشدي أم إلى ضلالي؟ ... ألح عليه السؤال وحاصره في زاوية ضيقة.

هرب من الإجابة وتأنيب الضمير الذي كان يعوده باستمرار. **(إلى اين أمضي، وأين كنت، وغداً أين سأكون؟!)**

أحس بأن جدران الغرفة تكاد تطبق على صدره وتهلك أنفاسه، فانتفض واقفاً يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. عاد إلى كرسيه، ولكنه لم يتحمل الجلوس عليه، فاستوى واقفاً ولبث جامداً لا يتحرك.

نظر إلى أوراقه المستلقية على الطاولة؛ رمقها ملياً وكأنه يطلب الغوث منها. حاول أن يقدح عقله المتجمد وكأنه يقدح في حجر صوان أصابه وابل من مطر، ولكن الشرارة التي كان يأمل أن تشعل النار في مخيلته، لم تجد لها متنفساً فماتت قبل أن تشتعل. صاح بحنق وهو ينظر للجدار الذي تقشر طلاؤه: ـ لقد شح فكري ونضب خيالي وضاع قاموس أفكاري، ولم يعد عقلي يعمل كالسابق، ومخيلتي الخصبة لم تعد تجود علي بأفكار جديدة.

(عمّا سأكتب؟) سؤال ابتدر به نفسه وهو يعود للجلوس على كرسيه، ثم تابع يحدث نفسه بعد دقيقة تفكير مشوشة: (هل **أكتب عن رجال عاشوا وماتوا فوق هذه الأرض قبل أن يعاصروا هذا الواقع المر .... الواقع الأليم ... أجل إنها لفكرة رائعة لم أجربها من قبل).**

لكنه سرعان ما هز رأسه وعدل عن رأيه الذي تحمس له فجأة، وقد راوده إحساس مفاجئ بأنه يريد أن يهرب إلى الماضي ... إلى التاريخ القديم؛ ... **(أليس هذا نكوصاً وجبناً؟ ... ليس هذا إلا هروب مخجل، وتقاعس وخمول).**

وبعد أن انقضت دقائق جديدة من الصمت عاد يقول لنفسه: **(سأكتب عن أناس يعيشون بيننا في هذا الزمن؛ رجال ونساء مستعبدين للشعوب؛ تجار وأصحاب رؤوس أموال وشركات ضخمة، متسلقون وانتهازيون، وتجار أزمة يلعبون بالأوراق النقدية، ويكنزون الذهب والماس ويتحلون به، بينما تعيش فئات أخرى من البشر حياة الفقر والفاقة والعوز، فيمدون أيديهم المشققة إلى الغير، وكثيراً ما يسكتون عن الأهانة وعن الزجر والسباب والضرب، تمر أيامهم ولياليهم سعياً وكداً وتعباً، ولا ينالهم من ذلك الجري سوى فتات قليلة يقتنصونها من فضول موائد الأغنياء يسدون بها جوع أطفالهم الذين يبكون بلا انقطاع لشدة ما يمسهم من ألم الجوع والحرمان).**

وصمت كل شيء في الغرفة ... القلم ... الورق ... حشرجات الأفكار التي كانت توشك أن تلفظ آخر أنفاسها، بينما علت صوت أنفاس الكاتب التي كانت تصعد وتهبط في حركة دورية.

ومضى الوقت طويلاً بطيئاً وعادت يتلبسه حال من الكسل والخمول، بينما بقي القلم صامتاً واجماً، والورق ساهياً ساهماً. فجأة، ومن شقوق عقله الخامل أضيء بصيص ملأ الغرفة أفكار ومعان، وعلت دقات قلبه، وتسارعت أنفاسه الباردة، وأخذ القلم يجري جذلاً فوق الأوراق التي بدأت تسود شيئاً فشيئاً بينما كان يقول لنفسه:

(أجل سأكتب ما كان عليَّ أن أكتب عنه منذ زمن بعيد؛ لم تعد تلك الأفكار البائسة تنفع بعد أن انتشر العفن وكثر الفساد والمفسدون؛ بعد أن تداعت أركان المجتمع ونخرها السوس. لم تعد الكتابة عن الفقر والفقراء ـ الذين يجترون بؤسهم وآلامهم ـ تؤتي أُكلها؛ لم تستطع تلك الحكايات المهترئة أن تجد حلاً أو تجد الدواء لجسد المجتمع الدنف الذي يوشك على الهلاك. هذا الواقع يحتاج إلى صرخة مدوية مجلجلة؛ أجل... سأكتب عمَّ يعتلج في نفسي الحائرة المضطربة، سأكتب عن الأخلاق المثالية الفاضلة التي ضاعت في زحمة هذا الزمان، سأكتب عن الشرف والأمانة والنزاهة التي قل وجودها، سأكتب عن أبطال حقيقيين يسعون لقلب المجتمع والعودة به إلى صفائه ونقائه وطبيعته التي فطره الله عليها، وسأعلنها على ألسنتهم صرخة احتجاج مدوية ... صرخة تنبيه توقظ الغافلين من نومهم، وتلقي الرعب في قلوب الذين باعوا ضمائرهم ورضوا بأنفسهم عبيداً لشهواتهم ونزواتهم، سأجعل من هؤلاء الأبطال سداً منيعاً في وجه الرذيلة والغش والكذب والنفاق ، سيكونون البناة لمجتمع جديد ونقي؛ سيبنون مجتمعاً فاضلاً يقوم على أنقاض الواقع الرديء).

توقف عن الكتابة قليلاً ثم قال سائلاً نفسه: **(ماذا سيكون أسم الرواية؟).**

وفكر ملياً قبل أن يهتف بسرور: ـ نعم لتكن رواية "الصراع".

انتهت

حدث في تلك الليلة

وأخيراً هدأت الحرب؛ توقف القتال على الجبهة. الإذاعات العربية والعالمية تناقلت الخبر بالتفصيل:

(توقف القتال على الجبهة السورية الإسرائيلية).

رفرفت أعلام النصر عالياً في سماء الوطن وخفقات مجدها تحمل البشرى إلى كل شارع، وكل حي وكل بيت؛ وأمست المدينة كخلية النحل. في إحدى ساحات العاصمة تجمهر نفر من الناس يتبادلون حديث النصر:

ـ لقد انتصرنا أخيراً..

ـ نعم نعم... لقد حطم جيشنا الباسل أسطورة الجيش الخارق الذي لا يهزم.

ـ انظروا يا جماعة إلى السماء كيف تضحك وهي تشاركنا فرحة النصر!

فرحة النصر ترتسم على كل الوجوه، نساء ورجال، أطفال وشيوخ؛ جميعهم امتلأت نفسهم بالحبور والسرور بعد طول يأس وقنوط.

قال رجل مسن ترتسم على محياه علامات الابتهاج يخاطب شاباً حدثاً يقف إلى جواره: ـ ياالله بعد ست سنوات من الحزن واليأس.... يجيء الفرج.

فرد الشاب بفرح طفولي: ـ ليتك أبصرتهم يا عمي كيف كانوا يفرون في أول أيام الحرب وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

ـ هل رأيتهم أنت يا بني.

ـ ليتني رأيتهم ... ولكنني سمعت طرفاً من حديث دار بين والدي وجارنا.

ـ لقد قاتل أبطالنا بشراسة يابني.

ـ صدقت ياعماه ...إنهم بواسل حقاً.

الناس جميعها بكل فئاتهم خرجوا إلى الشوارع والساحات يهتفون ويتبادلون التهاني. عاد بعض الجنود إلى منازلهم في إجازات قصيرة وأكاليل غار النصر تزين أعناقهم؛ وهرع الناس لاستقبالهم ولسماع قصص بطولاتهم وتضحياتهم؛ بعض الناس هرعوا ليسألوا ويستفسروا، فلكل منهم أخ وأب وقريب ما يزال على الجبهة.

أم حسن كانت إحدى هؤلاء الناس؛ كانت تتنقل في طرقات القرية تسأل كل جندي تراه عن ابنها "حسن":

ـ ... هل رأيت حسن يا بني؟ ... كيف حاله؟ ... هل هو بخير؟

كان الجنود العائدون من الجبهة يجيبون على أسئلتها بإجابات غير واضحة لم تستطع أن تبرد قلبها الذي يغلي كالمرجل.

قال لها أحدهم: ـ الحقيقة يا خالتي أم حسن أنني لم أرَ ابنك منذ التحقت بالخدمة، ربما هو في كتيبة أخرى!

وأجابها آخر: ـ حسن؟ آه.. الحقيقة أني لم أره... لكن أحدهم أخبرني أنه رآه يقود إحدى سيارات الجيش.

ـ آيه يا بني.... حسن لا يعرف القيادة، ولم يقد سيارة في حياته.

ـ ....

ـ وأنت يا ولدي ... هل تعرف شيئاً عن ابني حسن؟

ـ لا تقلقي يا أم حسن.

ـ وكيف لا أقلق وقد عاد كل جنود الضيعة!

ـ لا يا خالتي لم يعد كل الجنود، مازال هناك البعض ممن لم يحصلوا على إجازة ... ربما يكون ابنك في الدفعة القادمة؟

ـ ربما ... ربما.

قضت أم حسن بضعة أيام لا يعرف النوم سبيلاً إلى جفنيها المسهدين، كانت تقول لجيرانها بصوت عال:

ـ لو أني أعرف فقط ... هل هو بخير وسوف يعود يوماً؟ أم أنه قضى شهيداً وهو يقارع أعداء الله والوطن حتى أزغرد بعالي الصوت، وأقيم له عرساً يرفع به رأسه في جنات النعيم.

وبعد أيام جاءها البشير الذي يحمل لها أخباراً عن ابنها حسن. عند الصباح طرق باب دارها المختار فياض وهو يصيح باسمها بصوتٍ مرتفع؛ فتحت له الباب وهي ملهوفة، فوجدته واقفاً يعبث بشاربيه الكبيرين المفتولين.

ـ صباح الخير يا أم حسن.

ـ صباح الخير يا مختار.... خير إن شاء الله.

فقال المختار والابتسامة تزغرد على شفتيه: ـ خير إن شاء الله يا أم حسن..... ثم أضاف بعد لحظات: ... لقد جئتك ومعي أخبار عن ابنك حسن.

فصاحت بلهفة وشوق: ـ حقاً يا أبا خالد؟ بالله عليك أخبرني

ـ أبنك حي يرزق.... ثم قال مضيفاً بلا اكتراث: ... ولكنه مصاب.

ـ مصاب؟! .... هل إصابته خطيرة.

ـ لا أعتقد ذلك..... لقد أصيب في ذراعه كما أخبرني المساعد "عبد الرحمن".

ـ وأين هو الآن؟ .... أين هو؟

ـ لا تقلقي... لا تقلقي.. إنه في المستشفى الآن وسيعود قريباً بإذن الله.

*****

وبعد عدة أيام عاد حسن إلى القرية؛ بعض الناس رأوه فهرعوا مسرعين ليبشروا أمه بقدومه؛ وعند باب منزل أم حسن تجمهر بعض الناس وكل منهم يحمل البشارة. كانت أم حسن تطعم الدجاجات، وما أن سمعت الخبر حتى ألقت ما في يدها وهرعت بسرعة لملاقاة ابنها. كان مشهد اللقاء مؤثراً إلى الحد الذي جعل بعض الناس يبكون. لقد عاد حسن حقاً.... ولكنه عاد بذراع واحدة؟!

وفي الغرفة الطينية العتيقة التي احتوت الأم وابنها أخذت أم حسن تتفحص ولدها الوحيد من قمة رأسه إلى أسفل قدميه كأنها لا تصدق أن ابنها ما يزال على قيد الحياة. وبعد برهة من الصمت نظرت إليه باعتزاز وإعجاب وقالت: ـ إيه يا ولدي ... لقد غدوت رجلاً كاملاً، ويحق لي أن أفخر بك.

ابتسم حسن ابتسامة شاحبةً ولم يجب، فعادت أمه تواصل حديثها قائلة: ـ أتصدق ياولدي... لو كان أبوك حياً لحق له أن يفخر بابنه البطل الذي حارب العدو وفقد ذراعه بسبب ذلك.

نظر حسن إلى ذراعه اليمنى المبتورة وعض على شفته السفلى بقسوة وكأن النار تكوي قلبه، بينما استطردت أمه تقول: ـ الآن أصبحت تشبه والدك تماماً ... انظر إلى المرآة وسترى بنفسك إلى أي حد تشبه والدك... إنك تشبهه كثيراً، بوجهك الأسمر الذي لوحته أشعة الشمس، وشعرك المجعد، وصدرك العريض، وذراعيك المفتولين.

نظر حسن إليها من زاويا عينه، وقال بسخرية: ـ تقصدين ذراعي الوحيدة؟

لم ترد أمه على الفور، لبثت صامتة لبضع لحظات، بينما وضع حسن سيجارة في فمه وأخذ يعب من دخانها، ثم استوى واقفاً ونظر إلى أمه المطرقة وقال بمرارة: ـ هل تعرفين يا أماه ما معنى أن يكون الرجل بذراع واحدة؟ ...... ذراع يسرى وحيدة!

ـ ....

ـ لا تجيبي ... أنا سأجيب على سؤالي.

أزدرد لعابه الممتزج بطعم التبغ الحاد، ثم قال بحنق: ـ معنى هذا أن الرجل قد أصبح لا شيء.... لا شيء... نصف رجل... ومن العار أن يكون الرجل نصف رجل.

فانبرت أمه تقول بعصبية: ـ اخرس يا ولد ..... عيب عليك أن تقول هذا، أنت رجل ... بل سيد الرجال.

ابتسم بسخرية وقال: ـ هذا قولك أنت يا أماه.

ـ بل قول الجميع .... أجل... أنت ورفاقك الجنود الذين حاربوا وانتصروا، أنتم الرجال الحقيقيون الذين نفخر بهم، وننظر إليهم باعتزاز وإكبار...

ـ أنت لا تعرفين شيئاً يا أماه؛ إن الواقع يخالف ما تقولينه وتؤمنين به.

نظرت إليه ملياً، ثم هزت رأسها أسفاً وقالت بمرار: ـ أسفي عليك يا ولدي .... أسفي عليك ... لقد ظننت بأنك ستعود برأس مرفوعة تطاول السماء، والسرور يملأ قلبك لما حققتموه من نصر كنا نظنه مستحيلاً.

تنهدت بعمق وضربت على صدرها، ثم قالت: ـ ولكنك عدت رجلاً محطماً .... رجلاً فارغاً.

حملق بوجهها والدهشة ترتسم على وجهه؛ بينما استطردت تقول: ـ نعم .... إنك رجل فارغ تأسف على قطعة فقدتها من جسدك في سبيل وطنك .... لا يا بني ليس هذا نتاج تربيتي لك أبداً أبداً.

ثم غادرت الغرفة بسرعة، وتركته غارقاً بصمته وحزنه

*****

عند المساء خرج حسن من داره ليتمشى في طرقات القرية. كان مهموماً كأنما جبل عظيم يجثم على صدره. الصراع الذي يعيش تفاصيله ما انفكت حرابه تطعن في كبريائه بلا هوادة؛ الخيبة والحزن والمرارة، جميعا تكالبت عليه لتزيد من شقائه، وتستنزف آخر ما تبقى من جَلَدِهِ وتدك حصون ممانعته الهشة. كان يحس أن ما شاهده وعايشه من أهوال الحرب أهون عليه مما يحس به الآن، سيما وأن كلام أمه اخترق قلبه كسهم مسموم واستقر فيه. نظر إلى ذراعه المبتورة ملياً ثم تنهد بحسرة، وبعد أن سار قليلاً توقف عند دكان أبي خليل، فهرع الأخير لاستقباله وهو يقول مبتسماً:

ـ أهلاً بالجندي البطل .... أهلاً وسهلاً.

ثم دفع إليه بكرسي خيزران وقال: ـ تفضل اقعد

ابتسم حسن ابتسامة صفراء، ثم قعد وهو ينظر إلى أبي خليل الذي تجاوز الخمسين من عمره بقليل.

بينما قعد أبو خليل على كرسي مواجهً له عند باب الدكان، ثم قال وهو ينظر ملياً إلى وجهه:

ـ خيراً يا حسن ... مالك تبدو مهموماً؟

نظر حسن إليه وقال في نفسه: ـ (يبدو أن علامات الإحباط بادية على وجهي) ...ثم قال بصوت واهن حاول أن يجعله طبيعياً: ـ لا شيء .... أنا مرهق فحسب.

ـ نعم نعم هذا شيء طبيعي يا بني.

وصمت أبو خليل قليلاً ثم قال: ـ هل أخبروك عن الطائرة الإسرائيلية التي سقطت عند التلة الكبيرة؟

انتبه حسن لكلام أبي خليل ثم قال متسائلاً: ـ أية طائرة ؟!...... أنا لم أسمع عنها.

ـ حقاً! ... أنا سأخبرك عنها ..... لقد سقطت منذ أيام عند التلة الكبيرة ... أتصدق يا بني؟ لقد شاهدت انفجارها بعيني، وقد هرع الناس مسرعين إلى مكان سقوطها.

ـ وهل وجدتم شيئاً؟

ـ لا أبداً.. مجرد حطام .... نار ودخان.

ـ والطيار الذي كان بداخلها ..... ماذا حلَّ به؟

ـ لم نعثر عليه...

ثم قهقه ضاحكاً وقال: ـ لعله قد تحول إلى رماد.

ـ أو ربما فر بجلده يا أبا خليل.

ـ أمعقول هذا؟!

ـ ربما ... ربما.

هز أبو خليل كتفيه ثم قال: ـ لا علينا... إن التحدث بأمور الحرب يوجع الرأس؛ ما رأيك بكأس شاي يصنعه لك عمك أبو خليل على مزاجه؟

فابتسم حسن وهز رأسه وقال مرحباً بالفكرة: ـ أكون مجنوناً لو قلت لا.

ضحك أبو خليل بصوت مرتفع، ثم قام واقفاً وغاب داخل الدكان بضع دقائق قبل أن يخرج وهو يحمل أدوات الشاي؛ وبينما هو مستغرق في إعداد الشاي كان حسن يتفحصه بتمعن ويراقب طريقته المميزة في صنع الشاي، وانتبه إلى أن أبا خليل قد فقد إصبعين من يده اليمنى فرفع رأسه وقال متسائلاً: ـ عمي أبو خليل؟

ـ نعم.

ـ أتصدق؟ هذه أول مرة ألاحظ أنك قد فقدت إصبعين من يدك اليمنى!

ابتسم أبو خليل ثم قال وهو يضع الشاي في الأبريق: ـ أحقاً ما تقول؟ ... يبدوا أنك ضعيف الملاحظة؟!

ـ أجل.... ولكن خبرني كيف فقدت إصبعيك؟

ـ إيه يابني، لقد كان ذلك أيام الشباب واللهو؛ كنت أعبث آنذاك ببندقية صيد قديمة فانفجرت بيدي ـ ولا أدري كيف ـ وفقدت على إثرها إصبعين من يدي اليمنى.

ـ أعتقد أنك تألمت كثيراً يومها؟

ـ طبعاً لقد كان الألم فظيعاً والدم غزيراً.

ـ لا أقصد الألم الجسدي.

فنظر إليه أبو خليل وقال بتساؤل: إذاً ماذا تقصد؟!

ـ أقصد الألم النفسي الذي خلفه الحادث.

هز أبو خليل برأسه ورفع حاجبيه ونظر ملياً إلى حسن ثم قال:

ـ هل تعتقد يا حسن أني حزنت كثيراً لفقدي إصبعين من يدي؟ ... لا أبداً... لقد كان ما حصل حادثاً، وكانت مشيئة الله أن أكمل حياتي بلا إصبعين، ولو أني فقدت أصابعي كلها ما حزنت.

ثم هزَّ برأسه وشرع يصب الشاي وهو يقول متمماً: ... إن ما حصل معي هو شيء مقدر ومحتوم، والحياة لن تتوقف عند فقداننا عضواً من جسدنا.

ثم نظر إلى ذراع حسن المبتورة لأول مرة وقال:

ـ ها أنت قد فقدت ذراعك اليمنى، وأنا على يقين من أنك تعاني آلام نفسية شديدة، ولكني سأقول لك أمراً يجب أن تأخذه بعين الاعتبار.

شعر حسن بالدهشة وهو يستمع إلى ما يقوله أبو خليل، بينما قال الأخير وهو يرتشف من كأس الشاي:

ـ أسمع يا حسن... إن الناس لن تقول في يوم ما (انظروا... لقد جاء حسن ذو اليد الواحدة) ... أبداً لن تسمع هذا الكلام، على الرغم ممن أن الناس مولعون بالثرثرة وإطلاق الألقاب... أتعرف لماذا؟ ... لأنك فقدت ذراعك في سبيل هؤلاء الناس... في سبيل أن يحيوا بكرامة، وأن يخلعوا عنهم أغلال الذل والهوان التي كبلتهم لسنوات طويلة ... هل فهمت ما أعني؟

وأومأ حسن برأسه موافقاً دون أن يجيب.

وبعد أن غادر حسن الدكان، أخذ يسير باتجاه الحقول الممتدة التي تسيج القرية. كان كلام أبي خليل قد وقع في نفسه موقعاً حسناً، مما جعل البهجة تعود لتملأ قلبه من جديد، ثم عاد وتذكر كلمات أمه الحاسمة فتوقف لحظات وقد أطرق رأسه خجلاً من نفسه.

ومضى يسير على طريق ترابي يمتد إلى قلب الحقول، وتملكه شعور بأنه يسير في جنة من جنان الأرض، فقد كان منظر الحقول رائعاً بأشجارها التي بدأت تتعرى من حللها وهي تمد أغصانها نحو السماء، والأوراق الصفراء اليابسة التي تغطي وجه الأرض؛ ومما زاد البهجة في نفسه، رائحة التراب التي تزكم أنفه وروحه. أحس بنكهة الذكريات تعبق من حوله، وطارت به الذاكرة إلى أيام الطفولة التي قضاها في أحضان هذه الحقول، فأغمض جفنيه وسار منتشياً وهو يتذكر ذلك الطفل المشاكس " حسون " ـ كما كان يلقب ـ، ثم فتح عينيه وقد تملكه شعور بالحنين والشوق إلى تلك الأيام. لقد افتقد الهدوء الذي يشمل هذه الحقول الجميلة، وتعودت أذناه على سماع معزوفة النار والرصاص، وألفت عيناه مناظر الأنفجارات المدمرة، وتساءل: (هل ستأكل نيران الحرب هذه الاشجار في يوم ما؟) وأغمض عينيه بسرعة كأنه يهرب من مشاهدة منظر مخيف.

ولما وصل بستان أبيه، توقف لحظات وشمل البستان بنظرة مشتاقة وكأنما خيل له أبوه وهو يجدّ ويكدح في هذا البستان الخصب، يقلب تربته ويرويها بعرقه وجهده وحبه. ثم جلس تحت شجرة الزيتون العجوز وأخذ ينظر إلى الأفق ليشاهد منظر الغروب، وليعيش لحظات من الأنس والهدوء يسترجع خلالها من ذاكرته تلك الأيام الخوالي التي تركها تعرش على أشجار هذا البستان؛ ثم ما لبث أن التفت إلى جذع الشجرة التي يستند إليها، وحدق جيداً ليرى اسمه منقوشاً عليه، وأغمض عينيه من جديد تاركاً العنان لذاكرته تأخذه حيث تشاء وتمضي به إلى الماضي ليشاهد ذلك الطفل المشاغب "حسون" وهو يحاول أن يتسلق الشجرة، ثم ما يلبث أن يسقط عند بلوغه منتصف الجذع، ولكنه يقوم ليعاود المحاولة من جديد أكثر من مرة حتى إذا ما أحس بالأمل يذوي في نفسه، التقط مسماراً من بين الأعشاب والحشائش وجعل يعالج الجذع ليترك عليه ذكرى من الماضي، ورسالة إلى المستقبل، وليبقى توقيعه شاهداً على عبثه وطفولته.

*****

عندما أرخى الظلام ستائره على القرية كان حسن قد بلغ المنزل، وكانت أمه تجلس عند الباب، ولما شاهدته مقبلاً غطت وجهها ابتسامة سعيدة، وهزت رأسها مسرورة، ثم قالت: ـ لقد قلقت عليك يا ولدي ... أين كنت؟

وشعر بالسرور لسماعه هذا الجملة التي تعني أن أمه ليست غاضبة منه، . فابتسم بدوره وقال:

ـ لقد كنت في حقلنا وسافرت من خلاله برحلة عبر الذاكرة.

فأطرقت برأسها وقالت بلا مبالاة: ـ نعم.

ثم أضافت: ـ سيأتي عباس وزوجته لزيارتنا بعد قليل، ستكون سهرة لطيفة أليس كذلك.

فقال بسرور وقد علت وجهه ابتسامة مشرقة: ـ طبعاً طبعاً.... آه كم اشتقت إليك يا عباس.

ثم دخل إلى المنزل وهو يتذكر صديقه القديم عباس. كان عباس من الأصدقاء القلائل الذين كان يشعر معهم بالراحة والاطمئنان، فهو شاب مرح ذكي وخفيف الظل، يحبه من يعاشره ومن يجالسه لأول مرة، وهو يعرف متى يكون مازحاً ومتى يكون جدياً.

*****

بعد ساعة علت الضحكات الدار، وكان عباس كعادته مرحاً متفائلاً رغم المرض المزمن الذي كان يعانيه، والذي كان يسلخ من عمره المتبقي ساعات ألم وعذاب، ومع ذلك كان راضياً لا تفارقه الابتسامة، وكان يقول دائماً بسخريته اللاذعة: ـ (عمر الشقي بقي).

كان أهالي القرية معجبين بشجاعته وصبره وقدرته على السخرية وإطلاق النكات والتعليقات الساخرة حتى في اشد حالات ألمه.

وفي الوقت الذي كانت فيه أم حسن مشغولة بتبادل الحديث مع زوجة عباس، كان الأخير يقول مخاطباً حسن: ـ ـ وأخيرا انتهت الحرب يا حسن، إيه .... لقد حسبنا أنها لن تنتهي أبداً.

قال حسن: ـ نعم ... لقد مرت أيامٌ صعبة، ولكنها مضت على خير.

فعلق عباس قائلاً: ـ مضت مكللة بالنصر والفخر.

وصمت قليلاً ثم ضرب بكفه على كتف صديقه وقال بمرح: ـ لقد افتقدانك يا رجل، افتقدنا إلى تلك السهرات الجميلة التي كنها نقضيها سوياً.

فابتسم حسن وقال: ـ أما أنا فلقد اشتقت إلى حديثك الساخر الممتع، وإلى نشرة الأخبار الطريفة التي كنت تلقيها على مسامعنا مطلع كل مساء.

ضحك عباس ضحكة طفولية وقال: ـ لم يتغير أي شيء يا صاحبي، فحديثي مازال ساخراً، ووكالات الأنباء الأهلية مازالت توافيني بآخر أخبار الناس هنا في القرية.

أومأ حسن برأسه وقال: ـ حسناً ...... هات ما عندك.

فسعل عباس سعالاً خفيفاً متقطعاً مالبث أن تحول إلى سعال حاد ومتصل استمر بضع دقائق لم يستطع خلالها أنت ينطق بكلمة، ولما هدأت نوبة السعال رفع رأسه وابتسم، فنظر حسن إليه بشفقة وحنان، ولكن عباس عاد إلى مرحه وقال بسخرية: ـ هل تظنني قد مت؟ لا تخف ... لن أموت قبل أن أرى ذراعك الأخرى مقطوعة.

ولم يتمالك حسن نفسه فانفجر ضاحكاً ضحكة مجلجلة جعلت أمه وضيفتها تنظران إليه بدهش، وقالت أم حسن تخاطب عباس من حيث تجلس في ركن الدار: ـ الحمد لله، وأخيراً رأيت حسن يضحك منذ عودته..... لو أنك جئت منذ الصباح.

فقال عباس متسائلاً: ـ لماذا؟ هل كان يبكي قبل قدومي!؟

فأجابته: ـ لم يكن يبكي، ولكنه كان شديد الهم والاكتئاب.

هز عباس رأسه بينما عادت أم حسن إلى حديثها، ثم قال:

ـ مالك يا حسن؟ ... أصدقني القول.

ـ ماذا أقول؟

ـ قل ما تحس به.

ـ لا شيء .... لا شيئاً البتة.

ـ آه ...... لعل السبب ذراعك؟

ولم يجب حسن فاستطرد عباس يقول: ـ ... ماذا يعني أن يفقد الإنسان ذراعه؟! بل المهم في هذا .... أين فقد ذراعه؟ ولماذا؟ هل تفهم ما أعنيه؟

لم يحر حسن جواباً.

ـ حسناً ..... هل أنت لص؟

نظر حسن إليه وهو غير مدرك إلام يرمي فتابع الأخير يقول: ـ هل أنت لص؟ هل أقيم حد السرقة على ذراعك؟ هل بترت ذراعك وأنت ترتكب الحرام؟ هل بترت ذراعك لذنب اقترفته أو لمعركة شخصية بينك وبين أحد ما؟ ها ... أخبرني ... أجبني ...ارفع رأسك عالياً ... نعم يجب أن تفخر بأنك قد فقدت ذراعك في الحرب، يجب أن تكون هذه الذراع المتبقية وسام شرف تعلقه على صدرك وتفخر به طوال حياتك، هل تعي ما أقول؟

وسكت عباس قليلاً ليلتقط أنفاسه ثم قال متمماً بعد لحظات: ... أنظر إليَّ جيداً .... هل أنا عباس الذي تعرفه منذ الصغر؟ هل هذه صورتي التي تعرفها؟ هل هذا الهيكل الذي تراه أمامك هو نفسه الذي كنت تراه منذ خمس سنوات؟

وسكت عن المتابعة ونظر إلى حسن ملياً، ثم قال بلهجة فيها المرار والألم: ـ هل أصدقك القول يا صديقي؟

ظل حسن على صمته، فتابع عباس يقول: ... إن الألم الذي يزورني كل مساء وقبل أن أخلد للنوم لا يطاق .... لا يطاق أبداً، أتمنى لحظتها أن تنفصل روحي عن جسدي المعذب.

وتنهد تنهيدة طويلة حملها كل ما في نفسه من ألم ومعاناة ثم قال بهدوء وتسليم: ـ ومع ذلك تراني راضياً بما قسمه الله لي، أحاول جاهداً أن أرسم البشاشة على وجهي الأصفر، أحاول أن أكون متفائلاً قدر المستطاع، فالأيام تمضي في سيرها وهي تطوي من صفحات عمرنا المتبقي، وماقدره الله سيكون، فنحن لا نملك من أمرنا شيئاً.

تذكر حسن في هذه اللحظات كلام أبي خليل، ورنت تلك الكلمات الحكيمة في أذنيه:

(... إن هذا شيءٌ مقدر ومحتوم ... ولن تتوقف الحياة عند فقداننا عضوٌ من جسدنا).

خيم الصمت على الاثنين بينما ارتفع صوت ثرثرة أم حسن وزوجة عباس، وأخذ حسن يختلس النظر إلى وجه عباس الشاحب النحيل الذي ترك المرض آثار طعناته على صفحته، وإلى شاربيه الصغيرين، وشعره الأسود المسترسل، وشعر بالشفقة والعطف يأخذان بمجامع قلبه، ثم ما لبث أن نظر إلى ذراعه المبتورة وهز رأسه بسخرية.

وبعد دقائق من الصمت شرع عباس بالغناء؛ كان صوته يخرج من جوفه ضعيفاً مليئاً بالشجن والإحساس بالمعاناة، وكانت الأغنية حزينة جعلت المرأتين تسكتان عن الثرثرة وتنصتان إلى الغناء الحزين، وأخذ صوت عباس يرتفع رويداً.. رويداً، بينما أغمض حسن عينيه وترك نفسه تهيم في هذا العالم الحزين الذي صنعه عباس بغنائه؛ ثم ما لبثت نفسه حتى سرحت في عالم الذكريات وأعادت إلى مخيلته صورة الطفل " حسون "؛ كان ما يزال في الثامنة من عمره، ولكن جسمه كان قوياً، وكثيراً ما كان يتغلب في المشاجرات الصغيرة على الأطفال الذين هم في مثل سنه أو أكبر بقليل؛ تذكر هذا وهمس لنفسه : (كانت أيام جميلة لا يمكن أن تنسى)، ثم قفزت إلى مخيلته صورة أخرى؛ أول يوم له في المدرسة الابتدائية؛ كان وقتها صغيراً جداً، وكان يشعر بشيء من الخوف والوحدة، ولكن وجود عباس الذي كان في صف أعلى من صفه جعله يتغلب على خوفه، بل ويمتلئ بالثقة؛ ومع مرور الأيام بدأ " حسون " يفرض سيطرته على زملائه فأصبحت كلمته هي الكلمة الأولى والأخيرة في الصف، مما سبب له مشاكل كثيرة مع باقي تلاميذ الصفوف الأخرى، وجعله يدخل في عدة معارك كان يخرج منها المنتصر على الدوام، مما جعله يطلق على نفسه لقب " عنتر" فاحترم الجميع هذا اللقب وصار ينادى به.

وأيقظه من ذكرياته صوت عباس وهو يقول: ـ حسن .... أين سرحت؟!

فانتبه لنفسه ثم قال مبتسماً: ـ لقد أخذني صوتك الحزين إلى عالم آخر.

فضحك عباس بمرح وقال: ـ أخشى إن غنيت أكثر من هذا أن تتركنا وتذهب إلى المريخ.

وضحك الجميع.

بعد منتتصف الليل بقليل خرج عباس وزوجته من منزل أم حسن، وتبعهم حسن وأمه إلى خارج الدار، ووقف الجميع عند الباب الخارجي الذي يشرف على ساحة القرية ليتبادلوا تحية المساء.

كانت ساحة القرية صامتة فارغة في مثل هذا الوقت كأنما فرض عليها الموت، وكانت أصوات السمّار الأربعة مسموعة بشكل واضح في هذا السكون. فجأة شق الهدوء والصمت صوت مرتفع تبعه عدة أصوات؛ التفت الجميع نحو مصدر الصوت الذي كان قادماً من إحدى الحواري التي تتفرع عن الساحة. ارتفع صوت مجهول يصيح:

ـ أمسكوه ..... أمسكوه ...لا تدعوه يهرب.

وعلى الضوء الخافت المنبعث من أحد المصابيح المعلقة في الساحة، شاهد الجميع شبح رجل يجري بسرعة كبيرة، ثم يدخل في زقاق ضيق مواجه للحارة التي خرج منها، وبعد لحظات تبعه عدة أشخاص من أهالي القرية يركضون بسرعات متفاوتة؛ ولم يلبث حسن حتى اندفع كالصاروخ وراء الشبح ومطارديه تحت دهشة أنظار الجميع، وركض عباس وراءه بصعوبة تتبعه زوجته ثم أم حسن. كان عباس يحاول جاهداً أن يلحق بحسن وكان يلهث بشدة ويتنفس بصعوبة كبيرة، ومع ذلك لم يتوقف عن الجري إنما دخل في الزقاق الذي دخل فيه جميع المطاردين، ولما وصل إلى نهاية الزقاق الذي يفضي إلى البساتين، وجد الناس وقد تجمعوا على شكل حلقة وهم يصيحون:

ـ اضرب ... اضرب ... لاترحمه.

شق عباس الزحام بصعوبة لتقع عيناه على منظر أثار دهشه وإعجابه. كان حسن يجثم كصخرة ثقيلة فوق رجل غريب ملقي على الأرض، ويشبعه ضرباً ولكماً بيده اليسرى، والرجل يصيح مستنجداً بلغةٍ لم يفهمها عباس ولكنه قدر أن الرجل الغريب كان يستنجد؛ أما الناس الذين تجمعوا والغضب يملأ قلوبهم ويقدح شرراً من عيونهم فقد أخذوا يشجعون حسن على لكم الرجل؛ وبعد عدة لكمات قاسية تلقاها الغريب قام حسن واقفاً وهو يلهث بينما قام بعض الرجال بتقييد الغريب بالحبال، وقال أحدهم: ـ ستصل الشرطة بعد قليل.

سأل آخر : ـ كيف رأيتموه؟

فأجاب ثالث: ـ كان مختبئاً في البيت المهجور الذي يقع في الطرف الشمالي للقرية، وقد شاهده عبد الفتاح وهو يخرج فتبعه، ولما تبين له بأنه" إسرائيلي" أسرع للقبض عليه، فهرب الرجل وحصلت المطاردة حتى استطاع حسن الإمساك به.

نظر الجميع إلى حسن نظرات إكبار وإعجاب، فأطرق الأخير رأسه خجلاً، فالتفتوا إلى أمه التي كانت تقف ترقب المشهد بصمت؛ وقال أحدهم:

ـ إن ابنك بطلٌ يا أم حسن .... ثم استدار إلى الحاضرين وقال متمماً:

ـ لقد انطلق كالسهم وراء الرجل على الرغم من السرعة الهائلة التي كان يركض بها، واستطاع بلكمة واحدة أن يسقطه أرضاً.

وهنا ارتفع صوت عباس يقول مازحاً:

ـ تصوروا يا جماعة ... لقد قبض حسن على الرجل وهو بذراع واحدة .... ماذا لو كانت له ذراعان، ما الذي كان سيفعله؟

وقهقه الجميع ضاحكين، ثم نظروا إلى حسن الذي قال: ـ لعلكم تذكرون الطائرة الإسرائيلية التي أسقطها جيشنا منذ شهر .....

هز الجميع برؤوسهم موافقين، فتابع يقول:

ـ لقد ظن الجميع أن الطيار قد احترق مع الطائرة، ولكنه استطاع النجاة والاختباء عن أعينكم طيلة شهر حتى قدر الله لعبد الفتاح أن يراه بالصدفة ...وكان ما كان.

وتحول الجميع بنظراتهم إلى الجندي الإسرائيلي الذي كان ينظر إليهم مذعوراً كالفأر الذي وقع في المصيدة.

بعد قليل حضرت دورية الشرطة وتسلمت الأسير، وقبل أن تغادر الدورية التفت النقيب إلى حسن وقال:

ـ لقد قمت بعمل عظيم ... ستكون لك مكافأة أيها البطل.

فهز حسن رأسه مراراً ثم قال: ـ الحقيقة يا سيدي النقيب أني أخذت مكافأتي كاملة.

ورفع ذراعه اليسرى ونظر إليها باعتزاز؛ أما النقيب فإنه لم يفهم من كلام حسن شيئاً.

إنتهت

ساعة الأصيل

(1)

ساعة المغيب هي أحب الساعات إلى قلب " سالم عبد الرحيم، ففيها يجد الأنس والبهجة، وفيها يسرح في عالم الذكريات مع أصدقائه القدامى.

سالم رجلٌ قد تجاوز الخامسة والستين من عمره؛ كان يعمل موظفاً بسيطاً في وزارة الزراعة قبل أن يحال إلى التقاعد منذ بضع سنين، يقطن في منزل صغير يقع في إحدى الأحياء الشعبية الفقيرة، يقاسمه المنزل زوجته وأولاده الخمسة، وفيه يعيش برضا وقناعة بما قسمه الله له.

يقضي جلَّ النهار في المنزل غارقاً في القراءة أو عاكفاً في غرفته الصغيرة على ممارسة هوايته القديمة، وهي إصلاح الأجهزة الالكترونية والكهربائية القديمة، وكانت غرفته الصغيرة تشبه المتحف بما تحتويه من آثار الكترونية قد عفا الزمان عنها وأضحت من مخلفات العصور المنصرمة.

لم يكن سالم يخرج من المنزل إلا للضرورة، كشراء إحدى حاجياته الشخصية، أو شراء بعض القطع الالكترونية التي يحتاجها أثناء ممارسته لهوايته، أو لشراء جريدة في بعض الأحيان؛ أما عن ساعة الأصيل فقد كانت هي الساعة الوحيدة التي يخرج فيها من المنزل بشكل يومي مستمر، ولا يكاد يتخلف عن الخروج في هذه الساعة إلا للضرورات القصوى والملحّة، حتى أضحت ساعة الأصيل قيد يغلّه، وقانون يحكمه.

يخرج سالم في هذه الساعة وهو بكامل أناقته، مرتدياً بذلته البنية القديمة والوحيدة، وبيده عكازه المصنوع من شجر الجوز، ثم يمضي إلى مقهى " **أبي ياسين** " الذي يقع في آخر الشارع المتاخم للحي الذي يقطنه.

وفي المقهى يجد الأنس والمرح والسرور، فهناك يجلس مع أصدقائه الخمسة القدامى، أصدقاء الشباب وأيام اللهو؛ هناك يلقي همومه بينهم، ينفثها من أعماق صدره مع النرجيلة التي تقرقر وهي تروي خلجات نفسه؛ ويبدأ كل واحد من الأصدقاء بإفراغ ما في جوفه من مشاكل وهموم، حتى إذا ماانتهوا من تنفيث ما في صدورهم تتغير وجهة الحديث، فيشرع أحدهم بسرد حادثة من أيام الشباب، ويضحك بمرارة وحزن وهو يروي ذكريات تلك الأيام التي لن تعود، أما سالم فكثيراً ما كان يسرح في عالمه الخاص وأمامه كأس الشاي الذي لا يكاد يمسه إلا قبيل مغادرة الثلة المقهى، فيغبه بنفس واحد، وكثيراً ما كان الأصدقاء يتغامزون عليه أثناء شروده، فيقول أحدهم مازحاً : ـ أيه... أين أنت يارجل؟ ... أين شردت؟ ... لقد تحول كأس الشاي إلى مثلجات.

فيضحك الجميع بصخب وهم ينظرون إليه.

(2)

لم يكن نظام هذا اليوم ورتابته كغيره من الأيام، فعند عودة سالم من سوق الإلكترونيات بعد جولة طويلة فيه، وجد زوجته طريحة الفراش لا تكاد تقوى على الحراك وقد ألمَّ بها ألم قوي أنهك كل جسدها واستنزف طاقتها، وقد ظن هو وأولاده الخمسة أنها ربما هي حالة برد من الحالات التي تصاب بها في بعض الأحيان والتي تزول بعد يوم أو يومين من الراحة والتدفئة، لكن تلك الظنون والتمنيات خابت جميعها، فقد مضى الأسبوع الثالث من مرضها حتى أيقن كل أفراد الأسرة أن الأمر خطير، وتوجس سالم خيفةً من مرض زوجته، فاستدعى جارهم " عبد اللطيف " ـ الممرض السابق في إحدى المستشفيات الحكومية ـ وشرح له حالة زوجته، فذكر عبد اللطيف أصنافاً كثيرة من الدواء لم تفد أبداً في تحسن حالة المريضة، فأدرك سالم أن جاره الممرض قد أخذ الكبر بعقله وانتهى مفعوله، وقرر ذات مساء أن يقصد مقهى أبي ياسين ليروح عن نفسه قليلاً وليبث لأصدقائه بعضاً من معاناته. وعندما بدأت الشمس تنحدر نحو المغيب، كان سالم قد اتخذ مجلسه المعتاد بين أصدقائه، وتلقاه الجميع بالتساؤلات والاستفسارات فقال أبو عصام: ـ قد طال غيابك عنا يارجل! عسى أن تكون زوجتك قد شفيت من المرض؟

تنهد سالم تنهيدة مريرة وقال بانكسار: ـ ما يزال الألم يعتصرها في كل حين حتى أصبحت كالخرقة البالية لا حول لها ولا قوة.

فتساءل الأستاذ شوقي مدرس اللغة العربية السابق: ـ هل عرضت حالة زوجتك على إحدى الأطباء؟

فأجاب سالم بتردد وخجل: ـ لقد عاينها جارنا عبد اللطيف ووصف لها بعض العقاقير والمسكنات، ولكنها لم تفد بشيء!

هز الأستاذ شوقي رأسه أسفاً وقال بلوم: ـ أمعقول هذا يا رجل؟! الإنسان العاقل لا يفعل ما تفعله أنت!

نظر إليه سالم متسائلاً، فاستدرك الأستاذ شوقي يقول:

ـ يجب أن يرى زوجتك طبيبٌ متخصص ومشهور وفي أسرع وقت.

فأطرق سالم برأسه بضع دقائق ثم رفعه ونظر إلى الجميع بحزن و قال بتسليم:

ـ فوضت أمري لله ....

وأضاف بعد صمت قصير كأنما أفاق من حلم: ـ ... لكن الأطباء المتخصصون يتقاضون أجوراً مرتفعة جداً ويطلبون أصنافاً من الدواء .... أصنافاً كثيرة وتحاليل أكثر .... وراتبي التقاعدي لا يكاد يسد احتياجات المنزل والأولاد .... فماذا أفعل؟

خيم الصمت على الجميع، وغرق كل واحد منهم بأفكاره، بينما أنشأ سالم يمعن النظر في وجوه أصحابه المفكرة، وأخذ يرقب حلقات الدخان المتصاعدة في الهواء بانتظام، ثم حول نظره إلى زجاجة النرجيلة الذي يقرقر الماء فيها الماء بنغم رتيب. إنه منذ زمن بعيد يجد اللذة في مراقبة الأستاذ شوقي وهو يدخن نرجيلته، ويعجب كثيراً من مقدرة صاحبه على أطلاق حلقات الدخان في الهواء دون أن تتخرم أي من تلك الحلقات، وكان الأستاذ شوقي في مثل سن سالم، ولكنه يبدو أصغر من عمره، بشاربيه الأسودين المشذبين بعناية، وشعره المرجل للخلف الذي وخط الشيب بعضاً منه، ووجهه الذي لم تثلمه التجاعيد بقسوة؛ ثم نقل بصره إلى وجه أبي عصام، موظف مقسم الهاتف، والذي يصغر سالم ببضع سنين، وهو الآن على أبواب التقاعد؛ حدج سالم جيداً بوجه أبي عصام المكتنز، وكان الأخير قد عقد ما بين حاجبيه، فقدر سالم أن صاحبه قد غرق هو الآخر في التفكير، ثم انتقل ببصره إلى الوجه الثالث؛ كان وجهاً نحيلاً جداً، أسمر البشرة، يمتلك شاربين ضخمين، مما جعل صاحبه مثاراً للتفكه والتندر، وكثيراً ما قال له أصحابه مازحين: ـ يا أبا يونس، لم لا تحلق شاربك؟ إنه يغطي نصف وجهك! بل إنه يغطي وجهك كله.

ويقول البعض الآخرون: ـ ألا يعيقك هذا الشارب عن التنفس ؟!... أنه يكاد يسد منخريك.

يهز أبو يونس برأسه عند سماعه التعليقات الساخرة وكأنها لا تعنيه، ويبرم شاربيه الكبيرين المفتولين دون أن يجيب، وعلى وجهه ابتسامة الرضا، لأن شاربيه قد أثارا دهشة الناس وفضولهم؛ أما سالم صبري فهو الوحيد الذي يعتقد أن شاربي أبي يونس هما سر نجاحه في كونه شرطياً له مهابة واحترام في كل المنطقة؛ وأما صاحب الوجه الرابع الذي توقف سالم عنده طويلاً، فقد كان رجلاً قد بلغ السبعين من عمره ولم يزل يحتفظ بقوته وسلامة عقله، وكان هذا الرجل في شبابه مثالاً للشاب الطائش بكل ما تعنيه هذه الكلمة، فقد قضى أيام فتوته وشبابه يجري وراء اللذات والمغامرات والمشاكل، وقليلاً ما كان يعمل كباقي الشباب الذين كانوا يكدحون ويعملون لبناء مستقبلهم، أما هو فقد صرفته ملذات الحياة عن العمل، وصارت ملاحقة الفتيات الجميلات هي شغله الشاغل، حتى أطلق عليه بعض المثقفين من أهل الحارة لقب " **دون جوان الحي** "، فأعجبه اللقب كثيراً بعد أن شرح له أحدهم معناه، وصار يسعى حثيثاً ليثبت للجميع أنه صاحب هذا اللقب بالفعل، فكثر عدد الفتيات اللواتي وقعن في أحابيله وشباكه، فهو إلى جانب أنه – يمتلك قدراً لا بأس به من الوسامة – صاحب لسان ليس له مثيل في أطلاق عبارات الحب والغزل والمديح، مما جعله ينال لقب " دون جوان الحي" بجدارة.

نظر سالم طويلاً إلى وجه" مصطفى الحسين " (أبي أنور) وأمعن النظر في التجاعيد التي أثلمت وجهه، وركز بصره في عينيه عله يجد ذلك البريق الذي كان يتوهج أيام الشباب، ولكنه وجد عينين معتمتين شبه غائرتين فقال في سره: (أهذا حقاً هو " دون جوان الحي"؟!).

هزَّ برأسه مراراً لينتقل بنظره إلى وجه " عبد الغني الفوال" صاحب الدكان المتاخم للمقهى، إنه ليس من أصدقاء سالم القدامى؛ انضم منذ بضع سنين إلى هذه المجموعة لكونه جاراً للمقهى، ورحب به الأصدقاء لما يتمتع به من خفة الظل على الرغم من أنه يصغرهم بكثير.

وبعد أن أنهى سالم جولته بين الوجوه المفكرة، أطلق تنهيدة طويلة جعلت كل الحاضرين ينظرون إليه، فقال أبو يونس: ـ هون عليك يا أبا فتحي، لا بد وأن تفرج.

هز سالم برأسه دون أن يجيب؛ وفجأة وقف الأستاذ شوقي ونظر إلى الجميع بعمق، ثم قال وهو يمد يده إلى جيب سترته الداخلي: ـ ما بال وجوهكم قد علاها التفكير وهيمن على عقولكم قلة التدبير..... فليمد كل واحد منكم يده إلى جيبه وليخرج منها ما تيسر له من مال، فأبو فتحي صديق قديم وأخ حميم، عاشرناه كل هذه السنين وصرنا كالأخوة، فما نفع الصداقة إن لم تشبها عاطفة الإخلاص.

وكأنما فكرة الأستاذ شوقي كانت تراود الأصدقاء الخمسة، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على طرحها مخافة أن يشعر سالم بالإحراج، ولما أن كسر الأستاذ شوقي هذا الحاجز امتدت الأيادي بسرعة إلى الجيوب – التي لم يكن حالها أفضل من حال جيب سالم – وخلال دقائق كان قد تجمع على الطاولة مبلغ لا بأس به، فنظر سالم إلى الوجوه الباشة وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وهمَّ بالكلام، ولكن الأستاذ شوقي رفع يده معترضاً وقال بحسم: ـ لاتقل شيئاً يا أبا فتحي ..... خذ مالك وانصرف.

(3)

مساء اليوم التالي استدعى سالم الدكتور " ناظم فريد "؛ وهو طبيب مشهود له بالحذق والمهارة، انحنى على زوجة سالم يفحصها بعناية، بينما كان سالم ينظر إليه ويتفحص هيأته على عادته في مراقبة الناس والتمعن في هيآتهم وحركاتهم، وهي عادةٌ لا يعرف سالم من أين اكتسبها، وعلى العموم فقد أعجب سالم بشدة أناقة الطبيب، ونظافة ملابسه وبنظارته ذات الإطار اللامع. وبعد أن انتهى الطبيب من فحص الزوجة، انتحى بسالم جانباً ثم قال له: ـ يجب أن تعلم يا عم أن حالة زوجتك غير مطمئنة، ولا مناص لي من أخبرك بالحقيقة.

فابتلع سالم ريقه بصعوبة، وقد بدا الذعر جلياً على محياه، ثم قال بصوت واهن:

ـ أية حقيقة يا دكتور؟ .... أرجوك أخبرني.

ـ اسمع يا عم .... يجب أن نجري بعض صور الأيكو للقلب حتى نتأكد بشكل يقيني من حقيقة المرض.

ـ هل الأمر يتعلق بالقلب يا دكتور؟ هل الحالة خطيرة؟

ـ لا أدري بعد..... ولكن يجب التعجيل في إجراء الصور.

ـ متى يا دكتور؟

ـ في أسرع وقت .... غداً صباحاً.

وأغمض سالم عينيه قليلاً ثم قال بشيء من التردد: ـ وهل ..... هل هذه الصور مكلفة يا دكتور؟

فابتسم الطبيب وربت على كتف سالم وقال: ـ لاتخف .... لا تخف يا عم .... ليست مكلفة كثيراً.

فقال سالم وهو يشيع الدكتور إلى الخارج: ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(4)

في صباح اليوم التالي انطلق سالم وزوجته إلى مخبر الدكتور ناظم لإجراء صور الإيكو، ولم يكد ينتهي النهار وتغرب الشمس وراء الأفق حتى كان التعب قد نال من جسد سالم النحيل، فاقتعد إلى كرسيه المعتاد بين أصدقائه في مقهى "أبي ياسين" ، وظل طيلة الوقت صامتاً واجماً لا يكاد ينبس ببنت شفة، حتى أنه لم يسمع شيئاً مما قاله الرفاق، وانصب كل تفكيره على مرض زوجته، وعلى الصور التي أجرتها في الصباح، والتي كان قد دفع مقابلها كل ما تحتويه جيوبه من نقود؛ ومما لا شك فيه أن القلق والخوف نالا من قلبه الذي أخذ يخبره أن النتائج لن تكون مطمئنة على الإطلاق، سيما وأن الدكتور أخبره بأنه ربما تحتاج زوجته لإجراء عملية فتح صمام في القلب. أفاق من شروده على صوت " عبد الغني الفوال" وهو يقول معاتباً:

ـ ها يا أبا فتحي... مالك تبدو شارداً لا نسمع لك صوتاً، وكأنك تجلس وحيداً لا ترى أحداً من الموجودين؟

فانبرى الأستاذ شوقي يقول: ـ دعه وشأنه يا رجل، ألا ترى الهموم قد أرهقت قلبه!

ثم أضاف بعد برهة: ـ عسى أن تكون النتائج خيراً يا أبا فتحي؟

فقال سالم بيأس: لا أظن ذلك.

ساد صمتٌ ثقيلٌ بين الجميع لم يعد يسمع فيه إلا همهمة زبائن المقهى، وأصوات نرجيلاتهم، وتدحرج" أحجار الزهر على الأرضية الخشبية، ثم بدد سالم الصمت وهو يقول بصوت حزين: ـ زوجتي بحاجة إلى عملية مستعجلة... عملية في القلب.

وسكت عن الكلام وهو يجاهد ألا تفلت دموعه المحبوسة منفي مقلتيه، وقفزت إلى ذاكرته صورة الأولاد وهم يبكون، وابنته الكبرى ذات العشرين ربيعاً تحاول أن تهدئهم ودموعها تتساقط من عينيها دون أن تملك لها دفعاً، بينما ترقد زوجته التي هدها المرض في سريرها تنتظر رحمة الله.

كسى الوجوم وجوه الرفاق، وغشيهم صمت بارد، بينما استطرد سالم يقول بصوت ضعيف: ـ ... قال الدكتور أنها ربما هي بحاجة لعملية فتح صمام، وهذه العملية مكلفة جداً كما أخبرني...

تنهد مضيفاً: ... ويجب قبل ذلك إجراء بعض التحاليل المكلفة أيضاً للتأكد من ضرورة العملية...

بعد قليل غادر سالم المقهى لا يلوي على شيء.

(5)

كان يوم الخميس هو اليوم المقرر لظهور نتائج التحاليل، وكان سالم يعيش في هذه اللحظات حالة خوف وتوتر، وبدا ذلك واضحاً في تصرفاته وحركاته؛ كان يفرك يديه بعصبية وقلق وهو ينتظر أن يسلمه المخبري النتائج. وعند الظهيرة غادر المخبر متجهاً إلى عيادة الدكتور " ناظم فريد"، ثم خرج بعد نصف ساعة من عيادة الدكتور وهو مصفر الوجه، منقبض القلب، وقد غامت الدنيا أمام ناظريه؛ وأخذ يسير في الشوارع ساهياً شارداً ولم ينتبه إلى السيارة الصفراء التي كادت أن تدعسه، والتي أخذ سائقها يسب ويشتم سالم وينعته بالعجوز الخرف، أما سالم فتابع سيره ومازالت كلمات الطبيب تطرق في أذنيه طرقاً حاداً يتردد صداه المزعج في رأسه المثقل بالهموم، والأفكار السوداء بدأت تزحف بسرعة كغيوم الشتاء الماطرة لتلبد سماء فكره.

ـ (يجب إجراء العملية في أسرع وقت ممكن، وإلا ستخسر زوجتك ...)

ورنت الجملة الأخيرة في رأسه رنيناً مزعجاً، وأخذت تتبعها على الفور بقية الكلمات التي ما انفكت تنخر في قلبه كما تنخر الدودة في تفاحة عفنة.

ـ (يجب عليك الإسراع في تدبر أمر المال، وسأكون جاهزاً بعدها لإجراء العملية).

تسارعت دقات قلبه بعنف وهو يستعيد تفاصيل الحوار الذي دار قبل قليل بينه وبين الطبيب.

(لكن يا دكتور؟)

(يجب أن نجري العملية في أسرع وقت ...)

(.......................................)

(تستطيع أن تجري العملية في مشفاي الخاص)

(ولكن يا دكتور؟!)

(لا تخف يا عم.... يبدو أن وضعك المالي متأزم ... سيكون لك حسم خاص)

(وكم تكلف العملية يا دكتور؟)

وبدأت ضربات قلبه تعلو حتى كاد أن يسمعها في أذنيه وهو يتمتم بين شفتيه الرقم الخيالي الذي نطق به الدكتور ناظم. ولما وصل بيته كان مشلول الفكر لا يقوى على الكلام، دخل غرفته دون أن يكلم أحداً، وجلس قرب النافذة المطلة على الشارع وهو يسترجع بذاكرته من جديد تفاصيل الحوار الذي دار بينه وبين الطبيب، ثم أخذت به مخيلته إلى أفكار وتصورات سوداء

(من أين لي بهذا المبلغ الكبير الذي طلبه الطبيب؟ ..... هل أشحذ؟ ... هذا سخف وعار .... هل أسرق؟ .... هذا هو الجنون بعينه! ...)

هزَّ برأسه ليبعد هذا الفكرة الشريرة التي خطرت له، ثم عاد يفكر من جديد (من أين لي بالمال؟ .... هل أستدين؟ .... ومن يرضى أن يقرضني مبلغاً كبيراً كهذا؟ إن أصدقائي الخمسة لا يقلون عني فقراً ...إذاً ما العمل وزوجتي الآن بحاجي إلي؟ هل أتخلى عنها؟ إن فعلت ذلك فستتخلى عني هي نهائياً، وستترك في رقبتي خمسة أولاد يقصمون ظهري ويعجلون في نهايتي...)

ومضى يومان وسالم لا يبرح منزله، وكانت حالة زوجته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم حتى أحس بأنه يقتلها بكسله وقلة حيلته، لذا قرر أن يخرج هذا المساء وفي ساعته المحببة، إلى مقهى أبي ياسين، وهناك ينفث ما في صدره علّه يجد عند الرفاق مخرجاً لأزمته؛ وتلقفه أصدقائه في المقهى بسيل من الأسئلة.....

ـ كيف حال زوجتك؟

ـ ماذا قررت بشأن العملية؟

ـ هل ستجري العملية يا أبا فتحي؟

وسكتت الأسئلة مرة واحدة، ونظر الجميع إلى سالم بفضول منتظرين ما سيقوله، فقال وهو يدير نظرات زائغة لا تكاد تستقر بين الوجوه: ـ يجب أجراء العملية بأسرع وقت ممكن ... ولكن المبلغ ضخم جداً جداً ولا قدرة لي على دفعه.

ـ سوف نساعدك يا أبا فتحي .... قال أحدهم بتردد وخجل ...

ـ قلت لكم أن المبلغ ضخم جداً ونحن الخمسة لا نملك نصفه.

وشهق الجميع عندما نطق سالم بالرقم، وخيم الصمت على الوجوه التي علاها الوجوم والكدر إلى أن قطع وحشة الصمت صوت " عبد الغني الفوال " يقول: ـ ما رأيكم يا جماعة بأن نقوم بحملة نجمع فيها التبرعات عن طريق الجمعيات الخيرية.

فقال الأستاذ شوقي: ـ إن هذا الأمر يحتاج إلى وقت طويل، ناهيك عن التعقيدات والعراقيل التي تضعها بعض الجمعيات في طريق المحتاجين، وأنتم تعلمون أن حالة "أم فتحي" خطيرة ولا تحتمل التأخير.

وهنا انبرى أبو يونس يقول: ـ أسمعوا يا جماعة .... ما رأيكم بـ "صبحي العطار "؟

فنظر إليه البعض بدهش، والبعض باستنكار، فقال متمماً ما بدأه: ـ إنه يدين كل من يقصده مهما كان المبلغ كبير، وأنا لم أسمع بأنه رد أحدهم خائباً.

فقال أبو أنور معترضاً: ـ ما الذي تقوله يا رجل .... إن صبحي العطار لا يدين إلا بالفائدة ...... إنه مرابي حقير... أتق الله ... أتق الله يا رجل.

وأيده أبو عصام بقوله: ـ إن ما يقوله أبو أنور هو الصواب فـ " صبحي العطار " رجل يعمل بالربا فإذا استندت منه قرش صباح اليوم فعليك أن تعيده أضعافاً مضاعفة صباح اليوم التالي.

نظر الجميع إلى سالم منتظرين قوله الفصل، فأطرق سالم رأسه بيأس وقال: ـ هل لدى أحدكم اقتراح آخر أفضل من هذا؟

فلم يجب أحدٌ من الحاضرين، فعاد سالم يكرر نفس السؤال وعندما أيقن بأن لا أحد منهم يملك حلاً آخر تنهد بعمق وقال بتسليم: ـ إذن لا خيار آخر لدي.

ثم قام واقفاً وغادر المقهى والعيون العشر تتبعه حتى غاب عن الأبصار.

(6)

المعلم " صبحي العطار" رجل يعمل بالتجارة بالإضافة إلى أعمال أخرى، وهو في العقد الخامس من عمره، وكان عظيم الرأس، غليظ القسمات، متين البنية، على عكس سالم، نظر إلى سالم ملياً ثم وضع يديه الخشنتين على كتفه وقال: ـ قدومك عزيز يا أبا فتحي .... لكن يعلم الله أن كل أموالي السائلة في تجارة كبيرة، وخزينتي خاويةً هذه الأيام .... أجل .... يعلم الله أني أتمنى مساعدتك، ولكن ما باليد حيلة.

بلع سالم لعابه وأحس بغصة في حلقه تكاد تقتله، ثم قال بصوت واهن: ـ ألا يوجد لديك حل يا معلم؟ ... أرجوك ... أنا احتاج إلى المال بشدة.

فنظر إليه المعلم نظرة ماكرة وقال بإشفاق مصطنع: ـ إيه يا أبا فتحي، أنت تثير عطفي وشفقتي حقاً.

فقال سالم مستطرداً في توسلاته: ـ ليس لي من معين إلا الله وأنت يا معلم.

فبصق المعلم صبحي على الأرض وقال: ـ آه من هذه الأيام ما أتعسها.... هون عليك يا رجل، لن تخرج من هنا خائباً.

فانفرجت أسارير سالم واستبشر خيراً، بينما عاد المعلم ليجلس وراء طاولته ويقول: ـ لقد قررت أن أقترض لك المبلغ من أحد أصدقائي التجار .... لا تخف فهذا التاجر رخيص لن يطلب منك فوائد كثيرة.... ها ما رأيك؟

فأطرق سالم برأسه وقال بتسليم: ـ حسنٌ .... أفعل ما تشاء.

فابتسم المعلم وقال بخبث: ـ إذاً عد عصر اليوم الغد.

وغادر سالم الحانوت وهو يقول في سره: (... أخٍ من هذا الزمن الذي صار فيه أسم المرابي " تاجر)

وأخذ يجر قدمين متعبتين لا تقويان على حمله، وشرع يضرب في الشوارع وقد امتلأ قلبه بالهم والحزن وتانيب الضمير؛ حدثته نفسه بعظيم خطئه الذي جعله يلتجيء لمرابي حقير، وهو الذي طالما انتقد هؤلاء الناس، ونعتهم بأقبح الأوصاف... (آه يا سالم إلى أين دفعتك الحاجة!... تطلب العون من مرابي جشع لا همَّ له إلا الربح والثراء... بئس ما فعلت يا سالم.. بئس ما فعلت... تباً له ولماله.... والله لن أعود إليه حتى لو اضطررت أن أتسول وأمد يدي للغير).

خطرت له فكرة كان يصرفها عن تفكيره طوال الوقت، ولكنه وجدها أهون وأقل إيلاماً من التعامل مع مرابي. غيّرَ اتجاه سيره واتخذ طريقاً جديداً لم تطرقه قدماه منذ مدة طويلة. قرر أن يلتجيء إلى بعض أقاربه البعيدين الذين لا يراهم إلا في الأعياد والمناسبات؛ طرق عدة أبواب وقد كسى ذل الحاجة وجهه؛ جوبه بوجوه باردة، وأخرى ملونة، ووجوه وقحة؛ عاد أدراجه خالي الوفاض وقد شعر بأن قلبه يكاد أن ينفطر بعد أن أحنت الحاجة رأسه، وجعلته متسولاً في عيون من كان يراه عزيز النفس. ولما وصل إلى المنزل كانت الشمس قد أذنت بالمغيب وأعلنت عن ساعة الأصيل، هذه الساعة المحببة إلى قلبه، لم يقصد المقهى كعادته، فقد خانته قواه، وامتلأت روحه باليأس والقرف. دخل غرفته دون أن يكلم أحداً ودون أن يعرج على غرفة زوجته المريضة ليطمئن عليها، فقد شعر بأنه أضعف من أن يواجه نظراتها الكابية المتوسلة، ووجهها الكالح الذي سلب المرض نضارته وإشراقه، وهو بلا حول ولاقوة، بلا أسلحة يواجه بها خصماً شرساً لا يرحم.

ألقى نفسه على فراشه دون أن يمتلك القوة ليخلع ثيابه أو حتى حذائه، مضت دقائق وهو يحدق إلى سقف الغرفة، بدأت صورٌ كثيرةٌ تتزاحم في رأسه... صورٌ قاسيةٌ مخيفةٌ، وتصورات شرسة أخذت تنهش بأنيابها الحادة ما بقي لديه من أمل وصبر.

عندما دخلت الابنة الكبرى الغرفة بعد قليل لترى حال أبيها، كانت شمس الأصيل قد اخترقت زجاج نافذة الغرفة وانعكس لونها الأرجواني على الجدار المواجه لها. مدت يدها وهزت والدها برفق، فلم يستجب، ثم هزته بقوة أكبر وصوتها يعلو بالتدريج: أبي ... أبي ... أبي أبي...

لم يسمع سالم نداءها... لأنه كان قد فارق الحياة.

إنتهت

قصة عادية تحدث كل يوم

(1)

كانت السيارة " المرسيدس " السوداء الأنيقة تسير بسرعة كبيرة على الطريق المزفت الملتف الذي يصعد نحو قمة الجبل، ولم يكن السائق سوى رجل الأعمال الشهير" راضي الأحمد ". شعر هذا المساء بالسأم من ضغوط العمل ومشاكله وكثرة الاتصالات، وقرر بعد قليل من التفكير أن يغلق جهازه المحمول ويمضي بسيارته إلى قمة "جبل قاسيون"، حيث بإمكانه هناك أن ينسى ولو قليلاً من مشاكل العمل، وينعم بالمناظر الرائعة التي تبدو من القمة. شرع بإشعال سيجارة من النوع الفاخر، ولم ينتبه إلى المنعطف الحاد الخطير الذي فاجأه، وما هي إلا بضع لحظات حتى انقلبت السيارة في الوادي وتصاعد منها دخان يعمي الأبصار، ولكن العناية الإلهية أحاطت بهذا الشاب ـ المقبل على الحياة بصدر مفتوح ـ فقد استطاع القفز من السيارة قبل أن تسقط ونجح بصعوبة بالتشبث بحجر ناتئ وصار الآن معلقاً بين السماء والأرض. نظر إلى أسفل الوادي وراعه ما رأى؛ سيارته الفارهة قد تحطمت تماماً وأخذت ألسنة اللهب تتصاعد منها رويداً.. رويداً.. ووجب قلبه في صدره وقال في نفسه: (كان من الممكن أن أكون الآن داخل السيارة) ثم أخذ يحاول جاهداً التسلق والصعود، ولكن ذراعه اليمنى المتشبثة بالحجر لم تساعده وبدأ الخدر والإنهاك يسري فيها، أحس بدوار خفيف في رأسه، فاستجمع قواه من جديد وحاول أن يستعمل يده اليسرى ليمسك بالحجر، ولكن الحجر كان صغيراً لا يتسع ليديه الاثنتين، فعقد العزم على أن يبدل بين يديه الاثنتين ليخفف العبء عن يده اليمنى، ولكنه أحجم عن ذلك وقد خاف بأن تفشل عملية التبديل وتكون نهايته كما انتهت سيارته التي ترقد في أسفل الوادي. وبدأ اليأس يحل في قلبه بعد أن شعر بالإنهاك يجتاح كل جسده دفعة واحدة، وقدر بأنها النهاية، وبدأت دقات قلبه بالتزايد وأنفاسه بالتسارع، وشرع بترديد بعض الأدعية القصيرة التي أسعفته بها الذاكرة التي علاها صدأ السنين الممتلئة بالعمل والجري وراء المال. عاد ينظر إلى أسفل الوادي، ورأى سيارته العزيزة تنتظر هبوطه إليها وهو على قاب قوسين من الموت أو أدنى؛ تمنى في هذه اللحظات لوأنه ما زال وراء مكتبه في الشركة يجري بعض الاتصالات أو يدقق في بعض الحسابات، ولكن ما نفع التمني والحظ العاثر يلازمه منذ بدء النهار حيث تعطلت سيارته الـ " ب. م " منذ الصباح أثناء ذهابه للشركة، مما اضطره لاستعمال سيارته الثانية " المرسيدس "، وهاهي سيارته الثانية التي كان حظها أسوا من حظ أختها تقبع في أسفل الوادي منتظرةً لحاقه بها، وها هو متشبث بحجر صغير لن يلبث حتى ينحدر به إلى الأسفل. دب في أوصاله فجأة حب الحياة وفورة الشباب، فأخذ نفساً عميقاً ثم اخذ يصرخ بكل ما أوتي من قوة وعزيمة مستنجداً طالباً للغوث، ولكنه أحس بصوته يخرج مبحوحاً كليلاً، فأخذ يحاول من جديد التسلق، وضغط بيده على الحجر ثم حاول أن يدفع بجسده للأعلى، ولكنه أحس بالشلل يمشي في ذراعه اليمنى التي لم تعد قادرة على التحمل والصمود أكثر، وغامت الدنيا أمام عينيه وقدر بأنها النهاية وقال في نفسه : (هاهي النهاية قد اقتربت،

وبعد قليل سأكون بلا ريب في عداد الأموات) ولكن في هذه اللحظات التي راودته فيها الأفكار الرهيبة سمع صوتاً رحيماً ينادي : هيييه .... هيييه ....

للوهلة الأولى خيل إليه أنه يتوهم، ولكن الحبل الغليظ الذي تدلى من الأعلى جعله يدرك أن الصوت الذي سمعه لم يكن من صنع الخيال بل كان واقعاً جميلاً ... صوت حقيقي يناديه؛ وسرى النشاط في جسده المنهك فجأة كسريان الكهرباء في الأسلاك، وأخذ يعمل جاهداً لالتقاط الحبل الذي أخذ يتأرجح بالقرب من وجهه، وبعد عدة محاولات استطاع أن يلتقط الحبل بيده اليسرى الطليقة، ولما صار واثقاً من قدرة هذه اليد على الصمود والتحمل أفلت يده اليمنى المتشبثة بحجر، وتمسك بالحبل بكلتا يديه، على الرغم من التعب الذي أنهك ذراعه اليمنى، ثم بدأ الحبل يرتفع به، بينما هو يعتمد على رجليه في الصعود؛ وبعد مجهود مضن وصل إلى الأعلى وهو يلهث بشدة لفرط العناء و التعب. تنفس بعمق فأحس بالحياة تتدفق في أوصاله. لقد نجا من الموت بأعجوبة وكتبت له حياة جديدة، ثم نظر إلى وجه منقذه الذي انتزعه من الموت. رجل بحدود الخمسين من عمره، طويل القامة، كثيف الشعر والشاربين، غليظ التقاسيم، حاد النظرات، تدل بنيته المتينة على العزم والقوة. كان الرجل يقف إلى جانب حافلته يلف الحبل على ذراعه، وعلى وجهه شبه ابتسامة، فقال راضي بفرح وامتنان: ـ شكراً لك أيها الرجل الطيب، لقد أنقذت حياتي وهذا معروف لن أنساه لك ما حييت

دمدم الرجل بكلمات غير مفهومة، ثم أضاف بعد برهة قصيرة: ـ لقد رأيت دخان سيارتك من بعيد، فحدست أن حادثاً ما قد وقع فأسرعت للمساعدة.

فقال راضي بفرح طفولي: ـ الحمد لله أنك وصلت في الوقت المناسب، ولولا ذلك لكنت الآن في عداد الموتى.

فعقب الرجل قائلاً: إن الله قد كتب لك عمراً جديداً.

ثم مضى إلى حافلته وهو يقول: تفضل لأقلك إلى منزلك.

وبعد دقائق انطلقت الحافلة إلى أسفل الجبل. كان الرجل السائق صامتاً لا يتحدث، عيناه تحدقان في الطريق التي تطويه عجلات الحافلة، بينما كان راضي في قمة السعادة وهو يحدث نفسه قائلاً: (لقد كتب الله لي عمراً جديداً .... نعم إن الحياة ما زالت أمامي تفتح لي ذراعيها لأعيشها بسعادة وسلام .... آه... يجب أن أتعلم من هذه الحادثة درساً لن أنساه أبداً).

ثم التفت بغتة إلى الرجل وقال: ـ لم أتعرف على شخصك الكريم بعد أيها العم؟

قال الرجل باقتضاب: ـ أدعى أبو صلاح، وأنا أعمل كسائق لهذه الحافلة (الميكروباص) ".

فقال راضي: ـ وأنا أدعى راضي الأحمد .... رجل أعمال وصاحب شركة استيراد وتصدير.

فهز أبو صلاح برأسه عدم مرات ولم يقل شيئاً، بينما قال راضي بتساؤل: ـ هل هذه الحافلة ملك لك؟

أجاب أبو صلاح: ـ لا إنها ليست ملكي أنا أعمل كسائق بالأجرة فقط.

فأومأ راضي برأسه ثم قال: ـ عسى أن يرزقك الله بسيارة مثلها تكون ملك لك.

وصمت الاثنان فترة من الوقت إلى أن قال راضي: ـ تصور يا رجل لو أني مت في هذه الحادثة ....

وامسك عن المتابعة وشرد بفكره بعيداً، وتخيل لو أنه مات في هذه الحادثة، ما الذي كان سيحصل من بعده ، وتتابعت بعض المشاهد في ذهنه، ورأى بعيني خياله ماذا سيكون الحال....زوجته الجميلة لن تصبر طويلاً على الوحدة بلا شك، وستتزوج من رجل غيره ... الشركات سوف تنهار حتماً، فأخوه الطائش المبذر سوف يغرق في شهواته ويجري وراء ملذاته، تاركاً أعماله يديرها عنه أصدقاؤه الانتهازيون المنافقون، وعندها سيضيع كل شيء بلمح البصر، ولم لا وهو شابٌ مستهترٌ لا يكاد يستقر على أمر، لاهم له في الحياة سوى الجري وراء الفتيات وإنفاق الأموال عليهن أو على طاولات القمار ...

ثم أسرَّ لنفسه: (كان والدي رحمه الله على صواب في أنه لم يكن يثق بأخي وهو يعرفه حق المعرفة).

وصحا من تخيلاته على صوت أبي صلاح يقول: ـ لِم تَقول مثل هذا الكلام يا رجل؟! إنك ما زلت حياً.

وانتبه راضي لنفسه ثم قال: ـ صدقت يا أبا صلاح ... إني مازلت على قيد الحياة، والحقيقية أني أشعر بالحيوية والنشاط أكثر من ذي قبل.

فعلق أبو صلاح: إنه حب الحياة.

ثم أضاف بعد برهة: عندما رأيت انفجار السيارة من بعيد ...

فقاطعه راضي قائلاً: إنها سيارة " مرسيدس " حديثة ...

فنظر إليه أبو صلاح من زاويا عينيه نظرة تعجب ثم تابع قائلاً: ... لقد خيل لي أنك تريد الانتحار ...

فقال راضي باستغراب ودهشة: ما الذي جعلك تعتقد ذلك؟!

أجاب أبو صلاح وهو يقلب شفته السفلى: ـ لا أدري ... ولكن حوادث الانتحار كثيرة هذه الأيام.

وسكت قليلاً ثم أضاف: ـ ولكني حين رأيتك متشبثاً بالصخور توضحت الصورة لدي.

كانت الحافلة في هذه اللحظة قد بلغت المدينة فهتف راضي: ـ مهلاً يا عم .... يمكنك إنزالي هنا..

فقال أبو صلاح: أستطيع أن أقلك إلى منزلك إن أحببت؟

فابتسم راضي ابتسامة مضطربة وقال بسرعة: ـ لا لا شكراً يا عم ... سأتمشى قليلاً.

ثم هبط من الحافلة حين توقفت على يمين الطريق، وقبل أن يغادر أخرج من جيبه بطاقة أنيقة وقدمها إلى أبي صلاح وهو يقول: ـ هذه بطاقتي يا عم عليها عنوان شركتي وأرقام هواتفي ... اتصل بي إن احتجت أي شيء أو أي مساعدة مهما كانت.

ثم مضى بسرعة وهو يودع أبا صلاح بعبارات مقتضبة، بينما تأمل أبو صلاح البطاقة الفاخرة ثم ألقى بها فوق الرف بلامبالاة.

(2)

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشر ليلاً عندما وصلت حافلة أبي صلاح إلى إحدى الأحياء الشعبية الفقيرة. ركن أبو صلاح حافلته في أول الشارع ثم مضى إلى منزله القريب؛ عند الباب استقبلته زوجته وهي تقول: ـ لقد تأخرت يا رجل!

وعلى ضوء الشارع شاهد وجه زوجته القلق، وخمن بأنها كانت تنتظر قدومه وقد أخذت بها الظنون، فابتسم ليطمئنها ثم قال وهو يدخل المنزل الصغير: ـ لاتقلقي ولا تجزعي يا أم صلاح فقد حصلت معي اليوم قصة غريبة.

ثم توقف لبرهة في الممشى الضيق ـ الذي ينيره ضوء شاحب ـ كأنما يفكر في أمر خطر له فجأة، فقالت الزوجة متسائلة: ما بك؟

ـ لا شيء.

ثم دخل الغرفة الصغيرة وهو يقول: هل نام الأولاد؟

ـ نعم.

ـ إذاً اجلسي لأقص عليك ما جرى معي اليوم؛ وجلس الأثنان على الفراش الذي رقت سماكته واهترأت بعض جوانبه، وبانت حاشيته، وبدأ أبو صلاح يروي لزوجته تفاصيل القصة، بينما كانت الأخيرة تصغي إليه باهتمام وعلى وجهها بدت علامات الدهشة والاستغراب ولما انتهى من سرد قصته قال: ـ ها ... ما رأيك؟

فقالت الزوجة وقد التمع في عينيها بريق الإثارة: إذن فهو رجل أعمال مهم؟!

ـ نعم إنه رجل أعمال مهم ومشهور..... لقد قرأت اسمه مرة في إحدى الصحف.

ثم سكت قليلاً وتنهد تنهيدة طويلة وقال بصوت متعب:

ـ دعينا الآن من هذا الرجل وقصته وقومي أحضري العشاء فإني جائع ومتعب.

ثم اضطجع على قفاه ووضع يده خلف رأسه وأغمض عينيه وكاد أن يأسره سلطان النوم، ولكنه جفل فجأة وقد حسب أن انفجاراً قد وقع في البيت؛ كانت زوجته قد حطمت كأساً في المطبخ.

(3)

في صبيحة اليوم التالي كان راضي الأحمد يجلس في مكتبه في شركة الاستيراد والتصدير التي يملكها وقد تحلق حوله نفر من أصحابه وبعض موظفي الشركة، وكان يجلس مزهواً بنفسه وهو يقص على الجمع حادثة الجبل، ولكن بتفاصيل أخرى: ـ .... وبعد أن دوى انفجار سيارة المرسيدس ورأيت بعيني ألسنة اللهب تتصاعد إلى الأعلى، انتابني بعض الخوف وأنا معلق بين السماء والأرض .... ولكن ماالعمل والحياة ثمينة كما تعلمون...

قاطعه أحد الجالسين متسائلاً: ـ وماذا فعلت وأنت بهذا الوضع.... وكيف استطعت النجاة؟

فرشف راضي رشفة طويلة من كأس العصير، ثم تابع متمماً بلهجة البطل المغامر وقد بدت علامات الرضا على وجهه: ـ كما تعلمون يا شباب فأنا رياضي من الدرجة الأولى، وجسمي رشيق وبنيتي متينة، وقد اعتمدت على هذه المواصفات المتوافرة لدي، فحاولت جاهداً أن أتسلق إلى الأعلى وأنا خائفٌ من ألاَّ تحتمل الأحجار ثقل وزني ..... ولكن الله سلّم واستطعت أن أرفع نفسي ثم قذفت بكامل جسدي للأعلى حتى استطعت النجاة، ثم قعدت على الأرض ألتقط أنفاسي، وبعد قليل شاهدت سيارة قادمة من أعلى الجبل يقودها رجل عجوز فأشرت له بالتوقف وطلبت منه أن يوصلني للمنزل.

فتساءل أحدهم: وهل فعل؟

أجاب راضي: نعم نعم ..... ولما أوصلني شكرته وأعطيته مبلغاً ضخماً مكافأة له.

ثم أشعل سيجارة ونفث دخانها وقال: .... ليس هذا فقط، فقد كلفت بعض الرجال منذ باكر الصباح بتوزيع بعض المواد الغذائية على الفقراء والمحتاجين شكراً لله على هذه الحياة الجديدة التي وهبها لي.

وفي هذه الأثناء كانت بعض السيارات التابعة لشركات " راضي الأحمد" تطوف على بعض الأحياء الفقيرة وهي تلقي بحمولتها من ربطات الخبز على سكان تلك الحواري الفقيرة؛ أما أبو صلاح فقد نسي ما حدث معه في الجبل، ولم يقص قصته على أحد من زملائه السائقين أو أصحابه لأنه كان يعتبر فعله هذا واجباً إنسانياً لا يجب التباهي به أمام أحد من الناس؛ وكان يقود حافلته ظهر إحدى الأيام عائداً إلى منزله ليتناول طعام الغداء وهو شارد الفكر غارقاً في خواطره الكثيرة، ولم ينتبه إلى السيارة الصفراء التي خرجت فجأة عند تقاطع أحد الشوارع الصغيرة ... وحدث الاصطدام العنيف؛ أدرك أبو صلاح على الفور أن مقدمة الحافلة قد تهشمت تماماً، وتجمع بعض المارة قرب الحافلة المهشمة ألقوا عليها نظرات عابرة ثم انصرفوا وبعضهم يقولون مخاطبين أبا صلاح :

ـ حمداً لله على السلامة يا ر جل ... بسيطة ... جاءت في الحديد.

ـ لاتبتئس يا أخي قدر الله وما شاء فعل.... أشكر الله على أنه لم يصبك مكروه.

أما هو فقد وقف ينظر إلى حيث فرت السيارة الصفراء تارة، وإلى سيارته المهشمة تارة أخرى بعينين تجاهدان ألا تفلت الدموع من مآقيها، بينما كان اليأس والقنوط قد استولا على قلبه المترع بالهموم.

(4)

قالت أم صلاح بارتياع: ماذا قلت يارجل؟

ولم ينبس أبو صلاح بكلمة، بل أطرق رأسه يائساً، فعادت أم صلاح تقول بجزع: ـ وكم المبلغ ..... كم يكلف تصليح الحافلة؟

ـ المبلغ كبير ولا قدرة لي على دفعه.

ـ إذاً فليدفع مالك الحافلة نصف المبلغ.

ـ آخٍ يا أم صلاح ..... أنت تعرفين أن هناك اتفاقاً بيني وبين المالك وهناك عقد وشرط.

ـ إنها شروط مجحفة وظالمة.

ـ حتى لو كانت كذلك فالشروط هي الشروط وأنا وافقت عليها منذ البداية.

ـ إذاً ما العمل الآن؟

تنهد أبو صلاح ثم بحيرة ويأس: ـ لا أدري ... لا أدري.

وهبط على الزوجان صمت ثقيل ولفهما بردائه الحزين، وغرق كل منهما بأفكاره وتصوراته وهما يحاولان أن يجدا حلاً ومخرجاً، وفجأة صاحت أم صلاح بفرح: ـ راضي ... راضي..

رفع أبو صلاح رأسه المصدع وقال بعدم فهم: ـ ماذا تعنين؟

ـ قلت لك راضي ... الرجل الذي أنقذته من الموت في الجبل..

وازدردت أم صلاح لعابها وهي تقول متابعة: ..... أذهب إليه في الحال واطلب المساعدة.

ـ لكن يا امرأة؟

ـ لكن ماذا؟

ـ أخشى أن يظن الرجل أني أستغله.

ـ فليظن ما يريد ...... نحن الآن بحاجة للمساعدة ولا ملجأ لنا إلا الله ثم هو.

ثم أضافت بعد لحظات وقد عقدت ما بين حاجبيها: ـ قل له أن يعتبر المبلغ دين في ذمتك .... هيا تحرك .... ما بك تجلس جامداً؟ جلوسك هنا لن يفيد.

قام أبو صلاح متكاسلاً وغادر المنزل رغماً عنه وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

وبعد نصف ساعة كان قد بلغ شركة الاستيراد والتصدير حسب العنوان الذي قرأه في البطاقة، وعند الباب الأسود الكبير اعترضه رجل ضخم قاسي المعالم أخذ ينظر إليه ملياً قبل أن يقول: ـ ماذا تريد؟

ـ أريد مقابلة الأستاذ راضي الأحمد.

ـ وفيم تريده؟

ـ إنه موضوع خاص جداً ولا يمكن البوح به لأحد.

ونظر إليه الرجل بشك وتردد ثم قال: ـ انتظر هنا .... سأخبر الأستاذ.

ثم أدار ظهره وهو بالدخول لكنه توقف فجأة والتفت إلى أبي صلاح وقال: ـ ماذا أقول له؟ ..... أقصد ما اسمك.

ـ اسمي أبو صلاح ...... تمهل قل للأستاذ أن الرجل الذي لقيته في الجبل يريد مقابلتك لأمر هام ومستعجل.

ودخل الرجل وطال غيابه في الداخل، ثم خرج بعد قليل ثلاثة رجال أمسكوا بأبي صلاح وألقوا به على الرصيف المقابل للشركة؛ ثم أغلق الباب الأسود الكبير بوجهه، وعندما سألته زوجته: هل حصلت على المال؟ ابتسم ابتسامة باردة مريرة ما لبثت أن تحولت إلى ضحك مجنون متواصل ثم انصرف من أمامها دون أي كلمة.

(5)

صباح اليوم التالي كان البقال أبو سعيد يجلس خارج دكانه يقرأ جريدة الصباح ويشرب الشاي عندما مر به أبو صلاح فصاح به: ـ تمهل يا أبا صلاح.

فتوقف أبو صلاح، ودنا منه أبو سعيد ووضع يده على كتفه وقال بلطف ومودة: ـ أرجوك يا رجل لا تنزعج مني، ولكن ديونك كثرت وأخشى أنك لن تستطيع أن تدفع لي بعد ذلك.

فنظر إليه أبو صلاح نظرة شاردة فارغة، ثم حانت منه التفاتة إلى الجريدة التي يحملها أبو سعيد بيده فانتبه الأخير لنظراته وقال: هل قرأت جريدة الصباح هذه .... خذ وأقرأ أخبار الحوادث.

تناول أبو صلاح الجريدة وقرأ، ثم صاح بذعر: يا لطيف ..... ما هذا؟

فقال أبو سعيد: ـ أترى يا رجل ..... لقد كثرت حوادث السير هذه الأيام ..... أنتبه لنفسك جيداً وأنت تقود.

وسقطت الجريدة على الأرض وتمتم أبو صلاح: ـ ياالله ما أعجب هذه الحياة.

ثم مشى شارد اللب، بينما التقط أبو سعيد الجريدة وأخذ يقرا بصوت مسموع:

ـ (حادث مريع... رجل الأعمال الشهير " راضي الأحمد " يلقى حتفه على أثر انقلاب سيارته الـ ب. م على الطريق السريع).

إنتهت

صور من حارتنا

أفتح نافذتي كل صباح، فتستقبلني رائحة الحياة مفعمة بعبير الياسمين، وشذى الفل، وقهوة الصباح، ورائحة الخبز الساخن.

أجول ببصري إلى حيث ينتهي، فهذه حارتنا الصغيرة الأليفة ترتدي في كل يوم حلة جديدة من حلل الحياة لا يمل بصري رؤياها، وذاكرتي الضعيفة لاتكاد تسعفني في حفظ هذه الصور التي تتوالى تباعاً وكل يوم، فأعود إلى ورقي لأفرغ ما في نفسي.

يوم جديد في حارتنا

دخلت الشمس رويداً رويداً إلى حيّنا الصغير، وبدأت الحياة الرتيبة ذات الإيقاع المنتظم تدب في الحارة بدءاً من أولها وحتى آخرها، ويبدأ الحي من الشارع العام وينتهي كباقي الأحياء نهايةً ليس لها حدود، ويغوص في قلب المدينة القديمة ويلتف مع باقي الشوارع والأزقة التفافاً تفوح منه رائحة الماضي، ولكن المهم والمتعارف عليه في الحي أن مقهى " أبي لطفي" هو الحد الفاصل بين حارتنا والحواري المجاورة. عندما تبرز شمس الصباح تتسلل رخية كليلة لترسم ظلالها على الشرفات وعلى الجدران التي يعرش عليها الياسمين، فتُقبل الحارة قبلة حنونة توقظ الجميع، فيعلو صياح الحياة ويبدأ العمل على قدم وساق، وسرعان ما تبدأ المحال والدكاكين بفتح أبوابها فالمعلم " صبحي الصغير " يشرع منذ باكر الصباح إلى فتح دكانه، فيقوم أول الأمر بكنس أرضها ورش الماء خارج الدكان ثم يقتعد كرسيه خارج المحل ويبدأ بلف سيجارة على مزاجه ورد تحيات المارة.

أما مطعم " أبي عجاج " فيستقبل زبائنه عند الصباح بكثرة ويتهافت جميع أهالي الحي على شراء " الفول والحمّص " من المطعم.

ـ (إن فولي ما بعده فول .....) يقول أبو عجاج ذلك في أغلب الأحيان ويضيف أحياناً أخرى:

ـ (قلّعت أضراسي في هذه المصلحة يا جماعة وصرت كأني حبة فول ...). ويقهقه ضاحكاً.

وتصحب شمس الصباح ضوضاء وزياط، فهذا هو " الخضري " أبو علي يصيح بصوت رجولي جميل ويدلل على بضاعته بمدحها بعبارات مرتجلة لا تخلو من الطرافة.

و " عباس " حلاق الحارة الأول والأخير، ففي تمام الساعة الثامنة صباحاً يُسمع صوت أقدامه على أرض الحارة المبلطة وهو ينحدر من أعلى الحارة إلى دكانه في الأسفل، يسير الهوينا وأمامه يمشي كرشه المنتفخ وبيده سبحته ذات المائة حبة يطقطق بها ويتمتم بصوت غير مسموع، يلقي التحية على أصحاب المحال والدكاكين وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة طفولية، وهو الحلاق المفضل عند رجالات الحارة الكبار، أما الشباب والصغار فيقصدون الأحياء المجاورة للحلاقة، وحجتهم في ذلك أن عباساً ما يزال يحلق لزبائنه على الطراز القديم، وأن دكانه العتيقة قد باتت من مخلفات القرن الماضي.

وعندما يصل إلى محله يقوم بتنظيف المصطبة التي تقع على يمين الدكان، ثم يتخذ مجلسه عليها وسرعان ما يضع رأسه على كفه ويشرع بالشخير حتى يأتي زبون فيوقظه وهو يصيح: ـ قم يا معلم عباس.

ويقوم على عجل ليبرز فنه ومهارته الأصيلة في الحلاقة.

ويلتف الزقاق بعد دكان عباس التفافاً حاداً وتكثر بعدها المحال ويصبح ضوء الشمس المتسلل إلى الحارة ضعيفاً، وتعبق رائحة الخبز المشروح فتضفي على الحارة وشاحاً ذكياً معطراً برائحة " الخميرة " والخبز الساخن الخارج من بيت النار، ويقوم عمال الفرن منذ باكر الصباح بإشعال النار في الفرن الحجري حيث يقوم البعض بالعجين والبعض الآخر يقومون بتجهيز المناضد الخشبية التي يوضع عليه العجين المكور والمتشكل على هيئة كرات صغيرة.

والشيء الأكثر أهمية في حارتنا هو " مقهى أبي لطفي " الذي تعود تسميته إلى مؤسسه الأول " أبي لطفي زقزوق" جدُّ والد صاحبها الحالي، فمن هذا المقهى تستطيع أن تعرف الكثير عن الناس على اختلاف طبائعهم ومشاربهم، فمنهم الطيب المسالم، ومنهم المشكلجي، ومنهم الحيادي في كل الأمور، وتعبق في المقهى روائح التبغ وعطر الشاي والأنفاس الكليلة المشحونة بتعب الحياة ومشاكلها، ويتفنن البعض في التدخين، وتقرقر النرجيلة بنغم أثير لقلوب أصحابها فتزيدهم متعة وانشراحاً، وأما المعلم" رياض زقزوق " ـ صاحب المقهى ـ فهو رجلٌ يحب التدخين كثيراً، يجلس وراء طاولته الخشبية يدخن النرجيلة وهو مغمض العينين كأنما يستلذ بطعم التبغ، وهو عادة يحتفظ بعلبة التبغ الخاصة به في درج طاولته، وكثيراً ما كان يردد كلامه حول التدخين فيقول :

ـ (التدخين ذوق ومتعة وفن) وكان يجلس طوال النهار على كرسيه الضيق دونما حركة، بينما يقوم على خدمة الزبائن شاب صغير يدعى " بديع " حيث يقوم منذ الصباح بتنظيف أرض المقهى ومسح الطاولات وإشعال النار تحت الأباريق الكبيرة، ثم يتجه إلى أقصى المقهى فيفتح المذياع الضخم القديم الذي تعود ملكيته إلى أبي لطفي مؤسس المقهى. يعلو صوت المذياع كأنه قادم من مكان سحيق، فيهز المعلم رياض رأسه طرباً وهو يستمع إلى

ذلك التشويش المنبعث من أغوار الماضي، وعلى الجانب الآخر تعلو نغمات الهواتف المحمولة التي شغلت أكثر زبائن المقهى، وجعلتهم لا يلتفتون لشيء سواها. يُقبل بعد قليل الحاج " نعمان صاحب الفرن، فيجلس قبالة المعلم رياض ويترك للسانه العنان، بينما يستمع إليه المعلم صامتاً دون تعليقات أو استفسارات، مكتفياً بهزَّ رأسه موافقاً الحاج فيما يقوله على الأغلب، ثم يُقبل الحاج " رضوان " يتبعه الحاج " سليم " فيتخذ الاثنان مكانهما المعتاد في ركن قصي ويغرقان في حديث طويل لا ينتهي إلى آذان الظهر.

وعند الظهيرة يمتلئ المقهى حتى منتصفه ويسرع بديع كالنحلة لتلبية رغبات الزبائن دون إبطاء، وتسري في المقهى همهمة ثم ثرثرة يعقبها صياحٌ مرتفعٌ قد يتحول إلى شجارٍ في بعض الأحيان ويرتفع صوت " عبد المجيد عزمي " وهو يقول:

ـ ما هذا يا أبا أحمد؟ إن رأسك صلبٌ مثل هذا الجدار، ومحالٌ أن تتراجع عن رأيك ولو كنت تعرف أنك على خطأ.

فيجيبه " أبو أحمد " بصوتٍ حادٍ:

ـ لماذا التراجع وأنا مصيب في قولي ورأيي؟

ـ هذا كلام فارغ يا رجل.

ـ اسمع يا عبد المجيد إن ما أقوله لك ليس مجرد رأي شخصي إنه تجربة عملية مدروسة.

ـ ومع هذا فكلامك يحتمل الخطأ.

ـ اسكت بالله عليك.

لقد أصبح هذا المشهد مألوفاً جداً لكل رواد المقهى، ولم يعد أحد الجالسين يعره أي اهتمام، فقد أصبح هذا الجدال العنيف أحياناً حدثاً يومياً مكرراً، وصار جزءاً من دورة الأيام الرتيبة في هذا المقهى، فالأستاذ عبد المجيد عزمي ـ الذي يعمل مدرساً لمادة التاريخ في المدرسة المجاورة لحارتنا ـ صاحب آراء ومعتقدات قد لا يوافقه أبو أحمد على كثيرٍ منها، وأبو أحمد رجلٌ لا يحمل أي شهادة دراسية معتبرة، ولكنه مثقف من الدرجة الأولى، عارك الحياة وعاركته، ومرَّ بتجارب كثيرة صقلته وفتحت له آفاقاً كثيرةً للمعارف، واستطاع أن يثقف نفسه بنفسه وأن يكون له رأي ومشورة في الحارة، ومع ذلك وبعد كل هذا الجدال بين الرجلين إلا أنهما يخرجان من المقهى كل مساءٍ وهما يقهقهان بمرحٍ وصخبٍ .

عند المساء يمتلئ المقهى حتى آخره ويغص بروادها، وتخيم على أجوائها سحابة رمادية، ويقبل عامل المقهى الثاني، أما المعلم رياض فيغادر إلى منزله متعباً وقد أرهقه الجلوس على كرسيه الضيق، ولا تغلق أبواب المقهى حتى ساعة متأخرة من الليل فيفترق السمّار إلى بيوتهم، ويغوص الزقاق في ظلامٍ دامسٍ، باستثناء بعض الأنوار التي تشع من هنا وهناك، ومن بينها نور ينبثق من نافذة غرفتي وأنا أجلس وحيداً ساهراً أكتب ذكرياتي وخواطري.

إنتهت

الضياع

(1)

" وحيد " إسمٌ لطفلٍ صغيرٍ لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وهو وحيد كذلك لأبويه الفقيرين، أخرجه والده من المدرسة قبل أن يكمل مرحلة التعليم الأساسي، ودفع به ليواجه الحياة بقسوتها وعنفها، فعمل ماسحاً للأحذية، ومارس التسول لفترة من الوقت، وعمل صبي قصاب، ثم استقر به الحال في ورشة حدادة تقع على أطراف المدينة.

معلم الورشة " عوض"، رجل في أواخر العقد الخامس من عمره، ضخم الجسم ذو رأسٍ كبيرةٍ وكرشٍ منتفخٍ، وأكثر ما يميزه شفتان غليظتان يخفي شاربه الشفة العليا منهما. وهو رجلٌ بلا أولاد، فزوجته أمرأة عاقر لا تنجب، ولكنه على الرغم من ذلك لم يفكر بالزواج مرة أخرى.

كان وحيد ينظر إلى معلم الورشة وهو يطرق الحديد على السندان بمطرقته الثقيلة، وكان يعجب في بادئ الأمر بساعدي المعلم المفتولين، وبقوة طرقه على الحديد، ولكن هذا المشهد صار مع مرور الأيام الثقيلة مملاً، بل صار وحيد يكرهه ويكره المعلم نفسه، فلقد أضحى يضربه كل صباح دونما سبب وجيه، فقط لأنه يحب ضرب الأولاد، وكانت نبرات صوته المبحوح تقع في أذن وحيد كأبشع صوت سمعه في حياته، في حين أن المعلم عوض لايفتأ يردد: ـ سأذبحك ذات يوم أيها الولد البليد.

لم يكن وحيد بالولد البليد على الإطلاق، كان يعمل بنشاط منقطع النظير بالنسبة إلى عمره، فكان يلبي طلبات المعلم الكثيرة والتي كان يحس بأنها لن تنتهي أبداً، ولكن المعلم كان يقابل كل هذا الجهد منه بالغضب وشتمه بأقذع الشتائم. يبكي وحيد، يبكي بمرارة وحرقة عندما كان المعلم يشتم أمه، وكان ينزوي في أحد اركان الورشة ويدفن رأسه ذا الشعر الأسود المجعد بين ركبتيه الصغيرتين ويستغرق في البكاء، وكان صوت بكائه يصل إلى أذن المعلم عوض فيحسه كنعيب البوم، ويختلط مع صوت الطرق على الحديد مما يثير في نفسه الاشمئزاز والنفور فيصيح بصوت راعد: ـ كفاك بكاءً أيها الولد المدلل، وعد إلى العمل فقد نفد صبري.

صبر وحيد كثيراً، وكان يقول لنفسه أحياناً: ـ (لابد وأن المعلم سيلين ذات يوم، وسيخفف من حدة طباعه وسوء معاملته لي).

ولكن هذا الرجاء أخذ يضمحل يوماً بعد يوم، ثم تلاشى نهائياً بعد أن أخذت طباع المعلم تزداد حدةً وشراسةً، وصارت معاملته لوحيد أقسى من ذي قبل، وصار يرهقه بالعمل. إن جسد وحيد النحيل غير قادر على حمل أوزان كبيرة من الحديد كان المعلم يكلفه بحملها ونقلها من مكانٍ لآخر، وأحياناً كان المعلم يجبره على الوقوف في

إحدى زوايا الورشة على قدم واحدة وهو يرفع يديه الاثنتين للأعلى كعقوبة له، ربما لسببٍ تافهٍ، أو لأن وحيد كان يسترق أحياناً بضع دقائق يقف فيها عند مدخل الحارة يرقب الاولاد الصغار الذين هم في مثل سنه، وهم يلعبون بالكرة، وابتسامة حزينة ترفرف على شفتيه الجافتين.

وأما زوجة المعلم عوض، فكانت امرأة بدينة جداً، عديمة الجمال والجاذبية، كثيراً ما كانت ترسل بطلباتها إلى الورشة على ورقة طويلة، فيقرأ المعلم الورقة ويهز برأسه يميناً وشمالاً، ثم يصيح بتأفف وضجر:

ـ هيه ... يا وحيد ... ياكلب .... ألا تسمعني؟ ...تعال إلى هنا بسرعة.

ثم يقول وهو يناوله الورقة: ..... خذ هذه الورقة وانطلق بها إلى السوق واشتري الطلبات المذكورة فيها، ثم أوصلها للمنزل دون إبطاء ...هل فهمت؟ ...هيا بسرعة.

ثم يقرصه في خده قرصة موجعة يعتبرها سلفة عن العقاب الذي لابد أن يتلقاه إن هو أبطأ في مهمته.

ويحمل وحيد السلة والورقة والنقود وينطلق إلى السوق بسرعة، وعلى الرغم من أنه كان يجد في هذه المهمة فرصة للتخلص من العمل في الورشة ولو لفترة قصيرة، إلا أن هذه النزهة السريعة كانت تحمل له همّاً كبيراً وهو مقابلة زوجة المعلم في نهاية المطاف، فقد كانت مقابلتها مصيبةً في حد ذاتها، فقد كانت هذه المرأة في نظره شيطانة؛ كانت تكرهه جداً وتقابله بنزقٍ ونفورٍ، وتنظر إليه بقرف وازدراء كمن ينظر إلى خرقة متسخة بالية، ثم تأمره بفظاظة تنفيذ رغباتها وطلباتها، وكان يشعر بالخوف لدى رؤيتها، بحجمها العملاق، ووجهها المكتنز ورقبتها القصيرة التي تكومت فوقها أكداس من الشحوم، وعينيها الضيقتين المعتمتين والتي كان يرى فيهما قوة وقسوة؛ كان يقارن في بعض الأحيان بين تلك العينين المخيفتين، وعيني أمه الطيبة واللتين كان يشعر بالأمان عندما ينظر إليهما ويجد فيهما السكينة على الدوام.

وعندما أنهى جولته في السوق، وقف أمام باب منزل المعلم عوض لبضع لحظات قبل أن يطرق الباب، استجمع خلال هذه اللحظات شجاعته المنداحة في نفسه وهو يتوجس خيفةً من هذا اللقاء المحتوم. ثم وضع السلة على الأرض ومدَّ يده الصغيرة وطرق الباب الحديدي الكبير عدة طرقات؛ مضت فترة قصيرة قبل أن يسمع وقع اقدام ثقيلة تدب خلف الباب الموصد، وبعد لحظات فُتح الباب وعلى عتبته وقفت بضخامتها الغريبة ونظراتها القاسية تسد الباب، رشقت وحيد بنظرة شريرة كانت تخبئها له، ورسمت على فمها الكبير ابتسامة ماكرة تنذر بالشر، فبلع وحيد لعابه اللزج وقال بصوت مرتجف: ـ لقد احضرت لك ما طلبتيه من السوق ...

وقبل ان يكمل جملته أحس بصفعةٍ قويةٍ تنهال على وجهه بسرعة البرق، ثم أحس بالدنيا تسّود امام عينيه وقدر بأن سيسقط على الارض لا محالة، فأسند ظهره إلى جدار المنزل بينما كانت المرأة تصيح بغضب مفتعل:

ـ ويحك ايها الولد البليد الكسول، اين كنت تتسكع حتى الآن؟ لا بد وأنك قضيت وقتك تتجول في السوق ذهاباً وأياباً ولمراتٍ كثيرةٍ قبل أن تشتري ماطلبته، أو أنك كنت تهدر وقت العمل باللعب مع أقرانك من الأولاد الأغبياء، سوف أخبر المعلم بكل شيء.

(لماذا تكرهني هذا الكره؟! هذه المرأة السمينة، مالذي فعلته لتضربني بهذه القسوة؟).

كان وحيد يسأل نفسه هذا السؤال وهو يشعر بالنار تكوي قلبه، حاول أن يقول شيئاً ولكن الكلمات تجمدت في حلقه عندما لم يجد في نفسه الشجاعة ليخرجها ويلقي بها في وجه المرأة الغاضبة، وفقد كل مالديه من قوة أمام سطوة هذه المرأة وجبروتها، ثم مالبث أن حمل السلة الثقيلة إلى داخل المنزل وهو مطرقٌ رأسه والدموع تطفح من عينيه. وضع السلة في المطبخ وهو يتعجل الرحيل، وتلقى عند الباب مزيداً من الصفعات على رقبته قبل أن يغادر المنزل.

وطوال طريق العودة إلى الورشة كان يبكي بمرارة ويأس، بعض المارة شاهدوه وهو يبكي فلم يكترثوا لبكائه.

(2)

عندما آب وحيد إلى منزله في المساء كان يمني نفسه ببعض الراحة والأمان من تعب النهار الطويل، ولكن وما أن وطأت قدماه عتبة المنزل حتى تلقاه والده الطويل النحيل بسيل من المسبات والشتائم، أعقبها بسيل من اللطمات والصفعات، ثم أخذ يصيح فيه بغضب: ـ سأمزقك أيها الولد المشاكس، سأكسر عظامك يا قليل الأدب، إنك لا تستحق الرحمة.

لم يفهم وحيد سبب هذا الهجوم العنيف والمباغت وإن كان قد اعتاد عليه بشكل شبه يومي، ولكن هذا المساء كان أشد حدةً ضراوةً. وبعد أن أنهى والده حفلة الضرب والتعنيف زعق فيه بغضب: ـ تقضي وقتك كله جالساً في الورشة شارد الذهن تاركاً المعلم يعمل لوحده، ثم تعترض على أوامره وتتأفف من طلباته التي فيها منفعتك، وفوق كل هذا تشتم زوجته ظهر هذا اليوم .... لقد جاءت المسكينة إلى هنا وأخبرتني بكل شيء.

أخذ وحيد يبكي بصوت مرتفع وهو يقول من بين الدموع التي أخذت تسيل بحرارة على خده المتسخ:

ـ والله ما فعلت شيئاً من هذا لقد .....

ولكن والده صم أذنيه وهمَّ بضربه من جديد، وعندها أسرعت أمه تلقي بنفسها فوقه لتحميه من ضربات جديدة وهي تصيح بزوجها بغضب ممزوج بالحزن: ـ ويحك يارجل، لماذا تفعل كل هذا؟ لماذا تضربه بهذه القسوة وهو ابنك، أيستحق منك كل هذا بعد تعب النهار الطويل، إنك متحجر القلب قاسي المشاعر.... ثم من أدراك أن ماتقوله تلك المرأة القبيحة هو الحق.

أدار أبو وحيد ظهره قبل أن يسمع المزيد ثم دخل غرفته وأغلق الباب بعنف، وبقي وحيد منكمشاً على نفسه في حضن أمه الحنون وهو يبكي بكاءً متقطعاً مريراً، وشيئاً فشيئاً بدأ يشعر بالأمان الذي كان يرجوه منذ الصباح، وتمنى لو أن هذه الدقائق الدافئة تستمر إلى الأبد، وكانت أمه تمسد شعره وتمسح دموعه الحارة بكفيها المتيبسين وهي تقول بحنانٍ وعطفٍ وقلبٍ مكلومٍ: ـ هون عليك ياولدي.... هون عليك ياحبيبي، أنت تعرف أن والدك رجلٌ عصبي ومتقلب المزاج، ولكنه يحبك.

لم يكن وحيد متيقناً من أن والده يُكِنُ له الحب، فقليلةٌ جداً هي المرات التي كان والده فيها يعامله بلطف، بل كان ينتهره ويحقّره دائماً ويصفه بالولد الأبله، ويتمنى لو أنه لم ينجبه، وكان مثل ذاك الكلام يحزُّ في نفسه كثيراً ويطعنه في قلبه، فيلبسه شعورٌ من الوحشة والكآبة، ويحس بنفسه غريباً بين أبويه، ولكن أمه كانت تسارع دوماً إلى ملاطفته وتطييب خاطره المكسور، دون أن تملك شيئاً حيال تصرفات زوجها القاسية.

أخذ وحيد يهدأ تدريجياً؛ إنه يحس الآن بفيض من الحنان يغمره ويبرد قلبه من غليانه، وعززت لمسات أمه الحنونة من هذا الشعور، إنها لمسات تمسح بها وجهه ورأسه فيحس بها كأنها تمسح عن روحه المعذبة ما علق بها من حزن. نظر إلى وجه أمه بعينين صافيتين قد غسلتهما دموع الوجع والحزن، وكانت تبتسم له ابتسامتها المعهودة والتي طالما شيعت في نفسه الأمل والتفاؤل، ثم قالت بلطف: ـ هيا انهض يابني وأبدل ملابسك واغسل وجهك ويديك وقدميك، ريثما أكون قد حضّرت لك العشاء.

وبعد أن تناول وحيد طعام العشاء، ذهب إلى فراشه ليخلد للنوم منتظراً نهاراً جديداً مليئاً بالأحزان. أطفئت أنوار المنزل، وقضي وحيد ليلته مسهداً حزيناً لايعرف النوم إلى جفنيه طريقاً، نظر إلى زاوية الغرفة المظلمة واستغرق في التفكير، إلى متى سيستمر هذا العذاب الذي يستنزف صبره وجلده بالتدريج؟ وتخيل بأن أيام عمره كلها ستمضي ترزح تحت هذا العذاب الموجع، وتراءى له مستقبلاً أسود حالك الظلمة، بينما أقرانه من الأولاد يذهبون إلى المدرسة، ويلعبون الكرة في الشارع، ويخرجون بصحبة آبائهم أيام العطل في نزهات إلى الحدائق والملاهي، بينماهو يكدُّ في الورشة متحملاً صنوف الهوان والعذاب، وسياط الشتائم تفرقع في أذنيه.

وتجلت له في الظلام فجأة صورة المعلم عوض، بسحنته العبوس القرفة، وشفتيه الغليظتين، وتردد رجع صوته في أرجاء الغرفة شبه الفارغة: ـ (سأذبحك ذات يوم أيها الولد البليد).

ارتعد من الخوف، وانكمش على نفسه تحت اللحاف، وأغمض عينيه ثم فتحهما ثانيةً، وعاد ينظر إلى زاوية الغرفة المظلمة، ثم ظهرت صورة زوجة المعلم، كانت ترميه بنظرات ملتهبة من عينيها الصغيرتين اللتين تشبهان عيني ذئب مفترس، وشفتاها كانتا تتمتمان بشيء ما؛ أغمض عينيه ثانية ليهرب من مرأى هذه الصورة المخيفة، ولكن الصورة انطبعت في ذهنه لدقيقة طويلة قبل أن تتبدد وتتلاشى في ظلام مخيلته ليحل محلها صورة والده، بوجهه الأصفر النحيل وشاربيه المفتولين، وأخذت هذه الصورة الجديدة تطارده حتى بعد أن فتح عينيه، شاربا والده يهتزان هزاتٍ سريعةٍ وهو يتكلم بغضب، رآه وهو يرغي ويزبد ومن فمه كانت تتطاير قطراتٍ من لعابه، ثم اختفت صورة والده بعد لحظات، وبدأت الدموع تطفر من عينيه حارةً تتوسد مخدته فتغرقها، وأخذ يبكي بصوت مخنوق وهو يشد اللحاف بعصبية؛ استمر في نوبة البكاء بضع دقائق حتى أحس بشيءٍ يلامس قلبه، فاستشعر برودته، وفتح عينيه ببطء، وأخذ يدير رأسه في كل الاتجاهات، وفي هذه اللحظات انبثقت في الظلام صورة أمه ، فملأت فضاء الغرفة المظلمة بالضياء، كانت تبتسم وتقول برقة: ـ (هون عليك ياولدي .... هون عليك يا حبيبي).

وعاد يبكي من جديد، بكى وبكى حتى ابتلت وسادته ... ثم نام.

(3)

لم تكن الشمس قد أشرقت تماماً عندما نهض وحيد من فراشه وأخذ يجوس المنزل بسرعة، ثم فتح باب الغرفة التي ينام فيها والداه، فرأى وجه أبيه الأصفر النحيل، ورأى شاربيه يهتزان، وسمع شخيره المرتفع، ثم تحول إلى وجه أمه الأبيض الطافح بالحنان؛ كانت تغط في النوم.

ظل جامداً لبضع دقائق عند الباب يتملى في وجه أمه وكأنه لن يراه مرة أخرى، وتحول إلى وجه أبيه وتملى فيه أيضاً وكأنه يشحن إرادته بشيء ما.

لبث واقفاً لبضع دقائق أخرى لايلوي على شيئ، وبدأت تطن في أذنيه أصوات متفرقة أخذ يستحضرها من تلافيف ذاكرته محاولاً أن لاينسى شيئاً منها.

صوت أم عوض الهادر كهدير الرعد .... كلماتها القاسية المخيفة: (لا بد وأنك كنت تتسكع في السوق ذهاباً وأياباً ..... سأخبر المعلم بكل شيء).

صوت أبي عوض المتأفف:(كفاك بكاءً أيها الولد المدلل ..... لقد نفد صبري).

صوت أبيه الغاضب:(أنت لا تستحق الرحمة .... أنت قليل الأدب).

بعد دقائق غادر وحيد المنزل ... لا إلى الورشة ...بل إلى قلب المدينة المزدحمة، تجول في شوارعها وتنقل في حواريها .... ثم ضاع في الزحام.

إنتهت

الشجرة المقدسة

(1)

لا أحد يعرف متى نبتت الشجرة المقدسة، ولا كيف نبتت بهذه القوة، كل مايعرفه سكان قريتي الصغيرة بأنهم ولدوا في هذه القرية، فوجدوا الشجرة منتصبة وسط الساحة الرئيسة شامخةً ثابتةً.

لنعد قليلاً إلى الوراء.. إلى تاريخ القرية، لكي نعرف ماحكاية هذه الشجرة المقدسة، لنعد إلى تلك الفترة من الزمن والتي كانت فيها القرية أرضاً جرداء قاحلة تحيط بها الجبال الشاهقة. يقول لي جدي في مناسباتٍ كثيرةٍ: - يابني ... هذه القرية هي أقدم القرى المأهولة في هذه المنطقة، كان اسمها منذ أكثر من مئتي عام " جُريّدة "، ربما لأنها كانت جرداء لا نبات فيها، سكنها أقوام مختلفون على مرِّ السنين، وهاجروا منها بسبب ندرة الماء فيها، ثم تحول اسمها إلى " تل الخضرة ".

أترك جدي وكلامه لأشنف أذنيَّ إلى كلام المعمر " أبي القاسم "، إنه أكبر رجلٍ في القرية، ناهز المائة وخمس سنين ومازالت ذاكرته متينة يتحدى بها أحفاده. قال ذات مرة في معرض الحديث عن القرية: - قريتكم هذه يا أبنائي هي أم القرى وعروسها، أسموها تل الخضرة لأنها أكثر القرى خضرةً وجمالاً، وهي من القدم بزمان حيث أني ما زلت أذكر بأن جدي كان يقول لي وأنا صبي صغير: - (إن هذه القرية قديمة جداً تعود إلى آلاف السنين) يضحك أبو القاسم كثيراً قبل أن يقول متمماً حديثه: ـ ... أي أنها قديمة جداً جداً.. وربما قبل أن يبحر سيدنا نوحٌ بسفينته.

وعلى كل حال فإن هذه المعلومات القليلة لم تشبع فضولي أبداً، فرحت الى مكتبة العاصمة الكبيرة أفتش في الكتب المختلفة، وأتنقل بين الرفوف الكثيرة باحثاً عمّا أريد؛ قرأت وقرأت، وبحثت في عدة كتب تتحدث عن تاريخ القرى بدءاً من كتاب " ياقوت الحموي " وانتهاءاً " برحلات ابن بطوطة "، وأخيراً وبعد جهد طويل استطعت أن أجمع من شتى الكتب معلومات إضافية عن قريتنا. يقول أحد الرحالة في كتاب قديم يتحدث فيه عن أسفاره وترحاله: - (إن هذه القرية والتي يدعونها جريدة، قريةٌ فقيرةٌ جداً، سكانها أناسٌ طيبون فقراء، يشتغل معظمهم بالرعي وقليل منهم يعمل بالزراعة نظراً لندرة الماء، حيث أن فيها نبع ماءٍ يكاد يجف، وقد أخبرني أحد السكان أن هذا النبع يجف تارةً ويفيض تارةً أخرى. بيوت هذه القرية الصغيرة طينية متلاصقة، وشوارعها القليلة ضيقة). أظن أن هذا الرحالة ملَّ من قريتنا فغادرها مسرعاً ولم يذكر المزيد عنها.

ظللت عدة أيام أتردد إلى المكتبة الكبيرة وأتجول بين رفوفها، أقرأ المزيد من كتب الأسفار والرحلات، وفي كل مرة كنت أعثر على أشياء جديدة تتحدث عن القرية ولو بالقليل. عثرت في إحدى الكتب التي تتحدث عن تاريخ الريف في بلدي على بحث مطول عن القرية، يذكر فيها المؤلف أحداثاً هامة جرت في القرية منذ زمنٍ بعيدٍ، وإذ

هو يذكر نشأة القرية كما أعرفها ويعرفها الجميع، من أنها كانت أرض جرداء لانبات فيها، وكان الناس يتوافدون إليها عندما يشتمون فيها رائحة الماء، ثم تعود شبه خاوية عندما يجف نبعها الوحيد، ثم انفجر فيها فجأةً نبعان من الماء الغزير، وبدأ الناس بالتوافد إليها وبناء بيوتهم بالقرب من ينبوعي الماء، وفي مقدمتهم عائلة هاربة من حكم المدينة الظالم، استقرت هذه العائلة في القرية وتكاثرت فيها ومانتزال سلالتها حتى الآن تشكل قسماً كبيراً من سكان القرية، وإذ هو يذكر كل ذلك يذكر " عصبة الأشرار" التي احتلت القرية فترةً من الزمن وأذاقت الناس فيها صنوف الهوان والعذاب والظلم.

أغلقت الكتاب بهدوء وأغمضتُ عينيَّ وأخذتُ أسترجع من ذاكرتي ما سمعته عن عصبة الأشرار. شيوخ القرية وكبارها يروون لنا الكثير عن هذه العصبة الظالمة وفي مقدمتهم شيخ القرية أبو القاسم الذي قال لنا ذات مرة:

ـ لقد قاسينا الكثير من حكم عصبة الأشرار الظالم، وخسرنا الكثير من أبنائنا وإخواننا الذين ذهبوا ضحية ذلك الحكم المستبد الفاسد الذي حكم القرية بالنار والحديد.

هززت رأسي بعنف وقلت كمن يعاتب نفسه: ـ (كل هذا البحث في الكتب، وكل ما سمعته من جدي ومن أبي القاسم لم أستطع أن أصل إلى حقيقة الشجرة المقدسة).

ثم قلت ساخراً من نفسي: ـ (هل يعقل أن أجد كتاباً يتحدث عن تاريخ شجرة نعتقد نحن بقدسيتها؟!).

قصدت ذات مساءٍ صيفي ساحة القرية لأروح عن نفسي، كانت الشجرة المقدسة تنتصب وسط الساحة تمد أغصانها وفروعها نحو السماء، والعصافير كانت تروح منها مرفرفةً بأجنحتها ثم ما تلبث أن تحن لها فتعود مسرعةً إليها، وتذكرت وأنا أقف قبالة الشجرة اغنيةً قديمةً كنا نرددها صغاراً ونحن نعتلي فروع الشجرة المتينة لقطف الجوز اللذيذ، وكنا نردد كلمات الاغنية بمرح طفولي:

(الويل لمن سيقطع شجرتنا ... الويل الويل

الويل لمن سيقطف ثمرها غيرنا .... الويل الويل..)

ثم جلست في ظل الشجرة وأسندت ظهري إلى جذعها الضخم الذي امتلأ بعشرات الذكريات المحفورة عليه، وأخذت أقلب نظري في أرجاء الساحة؛ كانت البيوت الطينية البسيطة تلتف على بعضها البعض وتشكل مايشبه الدائرة التي تقف الشجرة في وسطها وكأنها معصمٌ يحيط به سوار يذود عنه ويزينه، ثم سمعت خرير الساقية

فالتفت إلى يساري وشاهدت كذلك الساقية تمر من الساحة بمحاذات الصف اليساري من المنازل المتعانقة، ثم تغادر الساحة متجهةً نحو الحقول التي تحيط بالقرية من كل الاتجاهات، وعجبت من نفسي في هذه اللحظات حيث تبادر إلى ذهني سؤال لم أفكر به من قبل ولم يدر بخلدي: (من أين تشرب هذه الشجرة، والساقية تمر بعيدة عنها لا ينالها منها قطرة ماءّ؟! ... وكيف صمدت كل هذه السنين ولم يجف فيها غصن أو فرع؟ّ !)

ابتسمت عندما أدركت فجأة أمراً لا يبرح يقيني أبداً، من أن هذه الشجرة مقدسة، ولمت نفسي على غبائي وقصر نظري، وأيقنت بأن أمر الماء الذي لا يصل إلى الشجرة هو أحد أسرارها المحيرة.

ثم قمت واقفاً واستدرت إلى جذع الشجرة وحدقت به ملياً، ثم قلت لنفسي الهائمة في هذا العالم الذي صنعته الشجرة في هذه اللحظات: ـ (هل هذه حقاً شجرة مقدسة؟ ومن أين أتت بقدسيتها؟! ....).

ثم أضفت بسخرية وكأن شخصاً غيري انبثق في داخلي فجأةً وأخذ يتحدث:

ـ (إنها شجرة جوز عادية تنتج في كل عام غلةً وافرةً من الجوز اللذيذ الذي يقتسمه أولاد القرية فيما بينهم).

صحوت من شرودي على صوتٍ أجش أعرفه جيداً، التفتُّ ورائي بسرعة؛ كان أبو القاسم بلحمه وشحمه وشخصيته المهيبة يقف قبالتي مستنداً إلى عكازه الخشبي الطويل؛ رمقته بإعجاب من أسفل قدميه إلى أعلى رأسه ولسان حالي يقول: ـ (إن السنوات المائة والخمس لم تستطع حقاً أن تسلبه شيئاً من قوته وشموخه).

قال لي متسائلاً: ـ علام تقف قبالة هذه الشجرة تحدق بها بهذا الشكل يابني.

وأضاف بلهجة يشوبها بعض السخرية: ـ هل هذه المرة الاولى التي تراها؟!

لا أدري لِم لَم أستطع الكلام، وكأن شللاً أصاب لساني، كل ما فعلته هو أنني هززت رأسي ببطء بحركات لا معنى لها، بينما جلس أبو القاسم مسنداً ظهره وعكازه إلى جذع الشجرة، ثم قال لي بهدوء: ـ أقعد يا بني.

أطعته وقعدت إلى جانبه، بقينا ساكتين بضع دقائق قبل أن يقطع أبو القاسم مجرى الصمت قائلاً: ـ إن هذه الشجرة التي كنت تحدق بها قبل قليل هي شجرة مقدسة، هل تدرك ذلك؟

فقلت ببطء شديد: ـ طبعاً .... أنا أعرف ذلك.

وأضفت في نفسي: (أبو القاسم لم يأت بشيء جديد).

ثم عاد يقول بصوت حاد: ـ وهل تعرف لماذا سميت هذه الشجرة باسم الشجرة المقدسة؟

فقلت باندفاع: ـ لا .... لا ياجدي (تعودنا أن نناديه بجدي)

ثم أضفت: ... حاولت كثيراً، وبحثت في عدة كتب، ولكنني لم أعثر على أي معلومة عن هذه الشجرة.

فضحك أبو القاسم ضحكة رنانة، ثم قال وهو ينظر إلى باستهجان: ـ تبحث في الكتب وأنا موجود!

فحدقت بوجهه المجعد ملياً ثم قلت باستغراب: ـ لم أكن أتصور بأنك تعرف.

ـ لماذا؟! ....قالها بدهشة واستغراب.

ـ لأنك تحدثت مرات عديدة أنت وجدي عن تاريخ القرية، ولم تذكرا أي معلومة عن هذه الشجرة، فخمنت بأنكما لا تملكان ما تقولانه عنها غير ما نعرفه.

لم ينطق أبو القاسم بكلمة، بل أخذ ينظر إلى الأفق البعيد حيث كانت الطيور قد بدأت تعود إلى أعشاشها، والغروب قد بدأ ينشر ألوانه بالتدريج، ثم مد يده إلى الجيب الداخلي لسترته الرمادية وأخرج علبة معدنية قديمة كان محفور أسمه على غطائها من الخارج؛ فتحها بيدين نحيلتين يخيل للرائي أنهما أفرع شجرة، وكانت العلبة مملوءة بالتبغ الأشقر الممتاز، ثم قال وهو يستل ورقة رقيقة من دفتر صغير ويشرع بلف سيجارة: ـ هل ترى هذا التبغ؟ ... إنه من أفضل أنواع التبوغ ... إنه يأتيني خصيصاً من القرية المجاورة كل أسبوع.

وتنهد بحسرة ثم قال: ـ إيهٍ ... رحمك الله يا أبا سليمان، مات منذ سنتين ولم يزل أبناؤه يرسلون لي هذا التبغ كل أسبوع، إنهم أولاد بررة.

لم أنطق البتة فلقد كانت عيناي معلقتين بأصابعه وهي تلف السيجارة السمينة ببراعةٍ عجبت لها، ثم استطرد يقول وهو يعود إلى حديثه الأول: ـ إن الحديث عن هذه الشجرة ذو شجون، فقصة الشجرة المقدسة قصةٌ محفورةٌ في ضمائرنا ـ نحن الجيل القديم ـ نسترجع تفاصيلها وذكرياتها في قلوبنا وعقولنا كل حين، ونستحضر بركاتها لتغمرنا بالأمن والطمأنينة كلما ضاقت بنا الدنيا....

ثم أضاف وهو يشعل السيجارة بعود ثقاب: .... ولهذا تجدنا في أغلب الأحيان نلتزم الصمت عند ذكر الشجرة، لأننا في حينها ندلف إلى عالم الذكريات لنستعيد تاريخ الشجرة لأنفسنا.

ثم قال بعد لحظات وهو ينفث دخان السيجارة كمن يقرر أمراً: ... ولكنني أعتقد يا بني بأننا مقصرون حيال هذا الأمر... أقصد الحديث عن تاريخ الشجرة، فأنتم أبناء هذا الجيل لا تعرفون إلا القشور عن الشجرة المقدسة،

ويجب علينا أن نحيطكم علماً بتاريخها المجيد .... أجل يجب أن يعرف هذا الجيل ويدرك ماذا تعني لنا الشجرة، وأي حيّزٍ كبيرٍ تحتل في قلوبنا، وكم نحن ندين لها بحريتنا بعد أن كنا نرسف تحت أجنحة الظلام.

ثم نظر إلي بعينين لم أستطع أن أعرف لونهما الحقيقي، وإن كنت أظن أنهما كانتا عسليتين فيما مضى، وقال بلهجةٍ يشوبها بعض الحماس: ـ هل تريد حقاً أن تعرف تاريخ هذه الشجرة، ولماذا سميت باسم الشجرة المقدسة؟

فقلت بلهفة وفضول: ـ طبعاً أريد ذلك.

فقال وهو يسحب نفساً جديداً من سيجارته: ـ يابني، الحقيقة أنه لا أحد يعرف متى نبتت هذه الشجرة ولا من زرعها؛ أجدادنا كانوا يقولون لنا بأنهم ولدوا وكانت الشجرة موجودة. في ذلك الوقت تنوعت القصص واختلفت الروايات حول تاريخ الشجرة، فمنهم من قال بأن من زرع الشجرة وليٌّ من أولياء الله، وقد غرسها هنا لتعلم الناس معنى الصمود في وجه الابتلاءات التي كان الله يمتحن بها عباده المُخلَصِين، وكانت غرستها مباركة، والبعض قالوا بأن تحت هذه الشجرة يوجد ضريح لشيخ تقي عالم بعلوم الدين، قضى نحبه في هذا المكان، فدفنه من كان معه من المريدين، ولا أحد يعرف على وجه الدقة هل كانت الشجرة موجودة عندما دفن الشيخ أم أنها نبتت على قبره بعد زمن، ومنذ ذلك الحين صارت الشجرة تمثل لسكان القرية الشيء الكثير.

صمت أبو القاسم بضع لحظات لينهي سيجارته التي شارفت على آخرها، ثم ألقى ما تبقى منها على الأرض وذرَّ عليها بعض التراب، وتابع يقول وهو يرقب بعينين نصف مغمضتين بقايا خيوط الدخان التي أخذت تسبح في الهواء ثم تتداح متلاشية: ـ هذا بالنسبة لتاريخ نشأة الشجرة، أم المهم فهو لماذا سميت بالشجرة المقدسة.

أخذت أنظر إلى أبو القاسم بلهفة منتظراً الحكاية.

*****

(2)

أغمض أبو القاسم عينيه الكليلتين لبضع لحظات، ثم أخذ نفساً عميقاً وقال لي بصوت له رنينٌ عجيب:

ـ قصة شجرتنا هذه التي نستند الآن إلى جذعها الضخم قصةٌ حقيقية عشتها بكل تفاصيلها وأحداثها.

لم أعلق على كلامه بشيء فقد كنت مشدوداً بكل جوارحي لسماع حكاية الشجرة المقدسة، فاسترسل يقول بصوت هادئ الجرس، قوي النبرات: ـ كنت في مطلع شبابي ـ ربما في العشرين أو أكثر بقليل ـ عندما جاءت عصبة الأشرار لاحتلال قريتنا. في ذلك الوقت حدثت خلافاتٌ كثيرةٌ في المدينة أدت لانقلاب عسكري أطاح بالحكم، وسأخبرك كيف حدث الانقلاب الذي لم يأت بين يومٍ وليلة ، بل كان الأمر قد خطط له منذ زمن بعيد بدهاء وقوة وحنكة، وكانت البداية عندما نشأت في المدن الصغيرة المجاورة للمدينة الكبيرة ما يسمى بعصبة الأشرار الذين كان يدعمهم في المدينة بعض الخونة الذين كانوا يمدونهم بالسلاح، ولا أدري كيف استطاع أشرار تلك العصبة أن يتشكلوا بتلك القوة!، كانوا متفرقين متشرذمين في المدن المجاورة الصغيرة لاحول لهم ولاقوة، ولكنهم كانوا يملكون من الدهاء والخبث ماجعلهم يبرزون فجأةً على ساحة الأحداث، ثم استطاعوا في مدة قصيرة تشكيل عصبةٌ قويةٌ ومتماسكةٌ بدأت تنشر أفكارها المسمومة بين الناس في كل المدن الصغيرة، ونتيجةً لذلك زاد عدد أفرادها فاستقطبت الكثير من رجالات الفكر والسياسة الدهاة، واستطاعت أخيراً أن تثبت وجودها كقوةً سياسيةً، وبعد ذلك زاد نشاطها وذاع صيتها واستطاعت أن توعز لبعض الخونة في المدينة الكبيرة للانقلاب على الحكم، وكان هؤلاء الخونة يسيطرون على أغلب المراكز الهامة في المدينة ويعملون في الخفاء كفريق واحد، وكانت تربطهم بعصبة الأشرار مصالح كثيرة محورها الأساسي " المال" الذي تملك منه العصبة الكثير، واستطاع هؤلاء الخونة أسقاط الحكم والسيطرة على مقاليد الأمور في المدينة، وكان من ضمن اتفاقهم مع العصبة أن يعطوهم قرية تابعة لحكمهم لتكون مقراً للعصبة، ولما استقر الحكم للخونة أطلقوا على أنفسهم لقب " اليد الحديدية، وكان شعارهم (اضرب عدوك بيد من حديد بلا رحمة)، وقاموا بتنصيب أحدهم زعيماً للمدينة الكبيرة وسط طقوس خاصة ومخيفة، وصارت جميع القرى التابعة للمدينة تحت سيطرتهم وسطوتهم، ثم بدأت علاقتهم مع عصبة الأشرار تزداد تماسكاً وقوةً ....

تنهد أبو القاسم بمرار ثم تابع يقول: .... وبرت جماعة اليد الحديدية بوعدها، واختارت قريتنا وأعطتها لعصبة الأشرار لتكون ملكاً لهم، وفي ذلك الزمن كانت قريتنا قد بدأت تدخل عهداً جديداً بعد انفجار النبعين الغزيرين، فغزتها الخضرة والبساتين، وتبدلت أرضها الجرداء إلى روضة خضراء يانعة، وكل ذلك بفضل جهد أبنائها وتعبهم وكدهم وتعاونهم، ولما جاءت العصبة ورأت ذلك الجمال الآسر بدلت اسم القرية من " جريدة " إلى " تل

الخضرة.... نعم يابني ... جاءت العصبة الشريرة لتمتلك القرية وتنهب خيراتها، فهاج أهل القرية وهبوا بسخط وعنف للوقوف في وجههم والذود عن الحمى، وكانت العصبة تمتلك أسلحة متطورة، ولم يكن سكان القرية يمتلكون إلا القليل من أسلحة الصيد التي لاتنفع في مواجهة تلك الأسلحة الحديثة الفتاكة، إذاً فقد كان الفرق شاسعاً بين قوة العصبة وقوة الأهالي.....

أمسك أبو القاسم عن الكلام قليلاً وهو يحدق في السماء التي بدأت تتلون بلون المغيب القاني، وكأنه يحاول أن يستحضر شيئاً ما من غياهب ذاكرته القوية؛ وبعد قليل من الصمت عاد يقول بصوتٍ حزينٍ كأنه قادم من غابر السنين: .... استطاعت العصبة في البداية أن تمتلك الحي الشرقي ـ أصغر الأحياء آنذاك ـ ثم قاموا بتوطيد أركان حكمهم في الحي. أهالي الحي الشرقي لم يستطيعوا فعل أي شيء حيال قوة العصبة الرهيبة، ووجدوا أنفسهم فجأة أمام أناس غرباء شرسين قد تخلوا عن ضمائرهم وإنسانيتهم وهم يمتلكون أسلحة فتاكة رهيبة لم يروا مثلها من قبل، ثم قامت العصبة بمحاولةٍ لمد سيطرتها إلى باقي الأحياء، ولكن أفراد هذه العصبة جوبهوا بقوة رجال القرية ونسائها الذين أفاقوا من الصدمة وهبوا لمقارعة مقاتلي العصبة وردّهم إلى مواقعهم، وظلت عصبة الأشرار تحاول جاهدةً مع مرور الأيام مد سيطرتها إلى باقي أحياء القرية، ولكن استماتة ثوار القرية في الدفاع عن أرضهم ووجودهم كان عاقاً قوياً في وجه العصبة، أضف إلى ذلك أن شباب القرية ورجالها شكلوا قوةً مسلحةً بأسلحةٍ بسيطةٍ لحراسة القرية ليلاً ونهاراً، لمنع دخول الأشرار إلى باقي الأحياء، مما جعل الاشرار يلجؤون إلى أساليب جديدة.

وسكت أبو القاسم عن الكلام، ثم ما لبث أن فتح علبته المعدنية وشرع بلف سيجارة جديدة، فأحسست بأنه يعاني من أمر ما ينبثق من ذاكرته، وبعد أن انتهى من لف السيجارة وضعها بين شفتيه الجافتين ثم أشعلها بعود ثقاب وعب من دخانها بتلذذ، بينما كنت أرقبه وكلي شوق لما سيقوله؛ وبعد لحظات من الصمت والتدخين عاد يقول: ـ لقد كان أحد أساليبهم الجديدة القذرة هو شراء الأراضي والمنازل من الفلاحين في باقي الأحياء، وكانوا يرسلون مندوبهم للتفاوض مع الناس، وكان المندوب يمتلك لساناً لايفتر، وقدرة عجيبة في إقناع الناس ببيع أراضيهم بأسعار باهظة...

فقلت مقاطعاً: ـ وهل باع الأهالي أرضهم؟

فأحنى أبو القاسم رأسه بتسليم وقال بلهجةٍ يشوبها الأسى: ـ أجل .... بعض الناس ضعاف النفوس باعوا أرضيهم وبيوتهم عندما شاهدوا المال الكثير أمامهم، وأكثر الناس رفضوا البيع وطردوا المندوب ذا السحنة الخبيثة، وعلى هذا صار للغرباء موطئ قدم في بعض الأحياء.

قلت وقد بدا بعض الأسى والخيبة في رنين صوتي: ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

فقال وهو ينفث الدخان من زاوية فمه المطبق على السيجارة: ـ حدث ذات ليلةٍ شتويةٍ باردةٍ كانت الرياح فيها تعصف بقوة، والامطار تتساقط بغزارة على القرية كأنها حبال لا تنقطع، حدث ليلتها ما جعل الموازين تنقلب لصالح عصبة الاشرار.

في تلك الليلية كان الشيخ" نصر الدين العمري" عائداً من المسجد بعد صلاة العشاء قاصداً منزله الذي يقع في طرف القرية، كان يسير في طريق فرعي مظلم بعيدٌ عن العمران قليلاً؛ سمع وهو يسير هدير سيارات قادمة من مفرق القرية التي يربطها بالمدينة، وقف لحظات يصيخ السمع، وعلى الرغم من الرياح والأمطار إلا أن الشيخ استطاع أن يسمع هدير السيارات، كان أمراً غريباً في ذلك الوقت فالسيارات لم تكن موجودةً في القرية باستثناء السيارة الكبيرة القديمة التي يملكها المختار والتي كانت تقل الناس إلى المدينة، لذا فقد قدر الشيخ أن هذه السيارات تخص عصبة الأشرار، وعجب كيف استطاعت السيارات دخول القرية دون أن يراها الحرس من الاهالي، وتوقع أن تسلك هذه السيارات الطريق المؤدي إلى الحي الشرقي، لذا فقد حث خطاه باتجاه مفرق الطرق سالكاً طريقاً مختصراً يتوغل بين الأشجار، ثم ربض خلف تلة صغيرة وأخذ يرقب الطريق، وبعد قليل أستطاع أن يتبين هياكل السيارت في الظلام؛ كان هناك أربع سيارات ضخمة تخص الجيش التابع لحكومة المدينة الجديدة (اليد الحديدية) وكانت السيارات تمش ببطء شديد وحذر. عاد الشيخ أدراجه إلى القرية، ثم وقف في الساحة العامة الخالية من الناس، وصاح بصوت مرتفع جعل سكان البيوت القريبة من الساحة يستيقظون ويهرعون نحو مصدر الصوت الذي أخذ يرتفع وهو يشق سكون الليل وهدوءه. تجمهر الناس حول الشيخ في حين بدأت حدة المطر تخف، وكان الشيخ يصيح بعال الصوت: ـ هيه .... يا أهل القرية ... أيها النائمون ... أيها الغافلون ... قوموا من رقادكم ... قوموا من غفلتكم.... الأشرار سوف يمتلكون القرية ...هيه ...هييه أيها الراقدون.

وخلال مدةٍ قصيرةٍ امتلأت الساحة بالصغير والكبير في حين توقف المطر عن الهطول، ولكن الهواء البارد أخذ يلسع الوجوه التي خرجت وأمارات العجب بادية عليها؛ وكثر اللغط والكلام وأخذ المتجمهرون يسألون بعضهم بعضاً عن الخبر. استطاع الشيخ أخيراً أن يُفهم الناس بأنه رأى أربع سيارات تخص جيش اليد الحديدية قادمة باتجاه الحي الشرقي، وأنها ربما هي محملة بوسائل الدمار الحديثة التي ستمهد لاحتلال بقية أحياء القرية.

كان الشيخ يخطب بالناس وقد احتقن وجهه وتطاير الزبد من بين شفتيه، وبدا غاضباً كما لم يره الناس من قبل، واختتم كلامه قائلاً: ـ أيها الناس الطيبون: إن الأشرار يحاولون يوماً بعد يوم مد سيطرتهم لباقي أحياء القرية وأنتم

غافلون، وما هذه السيارات التي رأيتها إلا إمدادات من جماعة اليد الحديدية تعاضد فيها حليفتها للفتك بكم والسيطرة على كل القرية، فهل ستبقون نيام؟!

أثرت كلمات الشيخ كثيراً في نفوس الناس، ودبت الحماسة في صدور الشباب، وقرر البعض مهاجمة الأشرار فوراً وليكن بعدها مايكون، والبعض رأى تأجيل هذه الخطوة حتى تتبين حقيقة السيارات، وارتفع اللغط والكلام مجدداً، واحتدم النقاش وتباينت الآراء واختلفت الاجتهادات والتحليلات، وبعد ساعة من النقاش والجدال انفض الناس كلٌ إلى منزله وكأن شيئاً لم يكن، بينما ظل الشيخ واقفاً وسط الساحة وحيداً مطرقاً برأسه تحت رحمة الأمطار التي بدأت بالهطول من جديد.

وبمرور الأيام تبين للناس أن كلام الشيخ نصر الدين العمري كان حقيقة لا لبس فيها، فأهل القرية لم يحركوا ساكناً بل اكتفوا بالثرثرة والكلام، بينما كانت عصبة الأشرار قد أدخلت إلى القرية كميةً كبيرة من الأسلحة الثقيلة والمتفجرات وصاروا قوةً لا يستهان بها......

كان أبو القاسم يتكلم بحزنٍ وأسىٍ وكأنه يعاني الآن من وطأة الاحتلال، وكنت أراه وهو ينفخ دخان سيجارته بحنق وغضب مكتوم، واسترسل يقول بصوت حزين: ..... وأخيراً حدث الاحتلال ... وقعت المصيبة الكبرى، فوجئ الناس صبيحة أحد الأيام بالأشرار وقد صاروا في ساحة القرية، استطاعوا إبادة الحرس بوحشيةً لا يمكن وصفها، ثم دخلوا بقية أحياء القرية بأعدادٍ كبيرةٍ وأسلحة متطورة فتاكة، كانت أصوات الرصاص تلعلع في سماء القرية معلنةً عن انتصار عصبة الأشرار، وانتشر المسلحون في كل طرقات القرية وحواريها الصغيرة، كانوا يقتلون كل من تقع عيونهم عليه، كبيراً كان أم صغيراً ، رجلاً أو امرأة، قاموا بمجزرةٍ رهيبةٍ راح ضحيتها الكثير من أبناء القرية، واستطاعوا في نهارٍ واحدٍ أن يفرضوا سيطرتهم على كل الأحياء وأن يخضعوا كل الناس لسلطتهم، عند المساء رفرف علم العصبة البغيض فوق دار البلدية لتصبح هذه الدار مقراً لحكمهم، وبعد أن دان لهم كل شيء بدلوا اسم القرية من جريدة إلى تل الخضرة ....

صمت أبو القاسم لدقائق طويلة، وعاد يحدق مجدداً إلى السماء التي ارتدت ثياب المغيب المودع. كانت طيور الحمام تطير مرفرفةً فوق الساحة وهديلها يملأ السماء، أحسست كما لو أنها كانت تشاركني سماع الحكاية الحزينة. لم ألح عليه ليكمل الحكاية بل احترمت الصمت الذي يجلله، وبقيت منتظراً سماع ما سيقول، وبعد دقائق من السكوت خرج عن صمته بزفرةٍ عميقة أطلقها من جوفه وهو يمسد لحيته البيضاء القصيرة والتي زادته هيبةً ووقاراً، ثم قال وعيناه ماتزالان شاخصتين للسماء: ـ ..... بعد ذلك يابني حدث ماهو متوقع، فقد أخذ الاشرار الغرباء يعملون على تطبيق أساليبهم في التعامل مع الأهالي، فصادروا الاراضي الزراعية التي لم يستطع

أصحابها أثبات ملكيتهم لها بأوراق رسمية ،وصار بعض الاهالي يعملون كالعبيد في أرضيهم، كما قامت العصبة باستملاك المنازل والأراضي التي اشتروها سابقاً ـ كما ذكرت لك قبل قليل ـ وقاموا بطرد أصحابها منها وهم يلوحون لهم بالأوراق الثبوتية التي تثبت ملكيتهم لها، ثم قاموا بعد ذلك بوضع أيديهم على فرن القرية الوحيد وصار يعمل لحسابهم، وفي المواعيد والكميات التي يحددونها، وبعد فترة من ذلك قاموا بإصدار قرار يسمحون فيه بالهجرة إلى خارج القرية لمن يرغب...... البعض هاجر من الظلم والاحتلال ... والبعض بقي في أرضه متشبثاً بالأمل الذي كان يعده باستعادة ما سلب منه بالقوة....

فتساءلت مقاطعاً: ـ ألم تلق العصبة أي مقاومة من الاهالي؟

أجاب وكأنه يتمم ما يقول: ... لم يستمر هذا الحال طويلاً يابني، ففي الخفاء كانت مجموعة من الشبان تقوم بعمل تنظيم لها لتشكيل قوة جديدة تقف للدفاع عن القرية، واستطاعت هذه المجموعة الجديدة بأسلحتها البسيطة وتنظيمها السري، المتقن والتعاون والاخلاص فيما بين أفرادها أن تقض مضاجع الأشرار، فهاجم الشبان مرات كثيرة دار الحكم، وألحقوا بالأشرار خسائر جسيمة، ثم استطاعوا في إحدى المرات أن يفجروا سيارة عسكرية كبيرة كانت قادمة للقرية محملةً بالسلاح لقمع الثورة الجديدة، وهذه العملية الاخيرة جعلت الرعب يدب في كيان العصبة، وتعاظم هذا الرعب أكثر عندما بدأ هؤلاء الشبان الثائرون بتوزيع منشورات في القرية يندون فيها بالاحتلال، ويدعون الناس للتماسك والتعاضد لإخراج المسلحين الأشرار من القرية، وكانت هذه المنشورات توقع باسم

(جماعة أنصار الحق).

هذه الحوادث كلها جعلت الاشرار يقومون باتباع أساليب جديدة لم تكن في حسبانهم عند قدومهم للقرية، ومن هذه الأساليب " المفاوضات "، فقد أعلن زعيم العصبة ذات يوم بأنه يرغب بالتفاوض مع زعيم أنصار الحق للتوصل إلى حل يرضي الطرفين، ولكن الثوار قاموا بضربة عاجلة ذات ليلة راح ضحيتها قافلة من الاشرار، وكانت تلك الضربة رداً قوياً على زعيم العصبة الذي يدعوا للمفاوضات، وكان الثوار يقولون من خلالها:

ـ (أخرجوا من ارضنا أيها المغتصبون، نحن لا نساوم على حقنا).

وبمرور الايام بدأت ثورة أنصار الحق تفقد قوتها بالتدريج، فقد نفدت الذخيرة وقلَّ الأمداد بالطعام، ولم يعد باستطاعة الثوار الحصول على المزيد من الأسلحة التي كانوا يحصلون عليها من القرى المجاورة، بعد أن ضيق الاشرار الخناق عليهم، فقد قاموا بفرض حصار شديد على حدود القرية وخاصة عند الجبل، وقاموا بنشر جواسيسهم وعيونهم بين الناس ليتمكنوا من معرفة الممولين للثوار؛ بعض تلك العيون كانت من أبناء القرية نفسهم،

والذين باعوا ضمائرهم وأخلاقهم طمعاً بالمال والجاه والسلطة الموعودة، وقد استطاعوا القبض على العديد من الناس بتهمة تمويل ثورة المخربين ـ كما أسموهم ـ وقاموا بإعدامهم بلا محاكمة؛ وبعد تلك الإجراءات المشددة شعر الأشرار بضعف الثوار، سيما وأن بعض القرى المجاورة والتي كانت تدعم الثوار أدارت ظهرها لهم، فقاموا بإرسال قوة كبيرة للجبل لتنتهي ثورة أنصار الحق؛ وتم لهم ذلك، واستطاعت العصبة أن تحاصر الجبل وتقطع كل وسائل المساعدة عن الثوار، ثم بعد ذلك قاموا بهجمة كاسحة وضعت النهاية المأساوية لثورة أنصار الحق، فمات من مات من الثوار، ومن بقي على قيد الحياة هرب إلى ما وراء الجبل، وعاد بعد ذلك كل شيء كما كان، وعاد الأشرار إلى معاملتهم الوحشية، وإلى محاولتهم إخلاء القرية وتهجير أهلها واغتصاب دورهم وأراضيهم بوسائل شتى، ثم استقدام أناس غرباء من خارج القرية للسكن في الدور المغتصبة والاستقرار فيها؛ وبمرور الايام ومع كثرة دخول الغرباء وهجرة بعض الأهالي ونزوحهم إلى قرى مجاورة، أصبح هؤلاء الغرباء قوةً جديدةً لا يستهان بها تدعمها عصبة الأشرار، فاستطاعوا بعد فترة قصيرة الاستيلاء على حي كبير هو "الحي القبلي" ،فاستوطنوه بالقوة فأطلق عليه الاهالي فيما بعد اسم" حي الغرباء" ،ومع تعاقب الأيام وكر الليالي القاسية بدأت تحدث اشتباكات ومعارك بين الاهالي والغرباء، كان يروح ضحيتها عددٌ كبير من الطرفين، ولكن العصبة كانت تدعم الغرباء بالسلاح والذخيرة في الخفاء......

مسح أبو القاسم على وجهه بباطن كفيه. ونفخ في الهواء أنفاساً حارة ملتهبة، ثم تابع يقول والغصة تكاد تخنقه: ـ ... ازداد الظلم يابني، وساءت أحوالنا كثيراً.... جعنا وعرينا، بينما كان الغرباء يرفلون في النعيم، تدعمهم عصبة الأشرار ضدنا، والتي كانت تستخدم أبشع أساليب التمييز العرقي...

قطع حديثه فجأة، ثم نهض واقفاً معتمداً على عكازه، واستدار نحو الشجرة وتحسس جذعها الضخم بيديه الخشنتين، ثم نظر عالياً إلى أغصانها الضخمة المتفرعة وقال باعتزاز: ـ ثم لعبت هذه الشجرة المقدسة المباركة دورها التاريخي في تخلصينا من الاحتلال.

نظرت إليه بدهشةٍ ممزوجةٍ بالشك، وقلت متسائلاً بفضول شديد: ـ هذه الشجرة أنقذتكم! ... كيف؟

فضحك ملء شدقيه وقال: ـ أجل.

عاد للجلوس واستأنف متابعة حديثه، ثم قال بلهجةٍ يشوبها الحماس والفرح: . ... كان ذلك في أحد الأيام ... كان يوم جمعةٍ، والناس قد خرجوا من المسجد الوحيد بعد أدائهم الصلاة، وكالعادة ألتقوا في حلقات خارج المسجد يسلمون على بعضهم البعض، ويتجاذبون أطراف الحديث، وفي تلك الساعة الفاصلة رأى الناس " عباس المجنون" يركض باتجاه باب المسجد حيث اجتمع الناس؛ كان يلهث من فرط التعب، نظر إليه الجميع بفضول. إنهم

يعرفون عباس المجنون بكل تأكيد فما وراءه الآن؟ وقال عباس بصوت متقطع وهو يجثو على ركبتيه من شدة التعب: ـ أسرعوا.. أسرعوااا.. أيها الناس ... الأشرار سوف يقطعون الشجرة المباركة ...شجرة الجوز العتيقة.

صعق الناس لدى سماعهم النبأ، حاولوا الاستفسار من عباس عن حقيقة الأمر، ولكن عباس لم يكن لديه شيئاً ليضيفه، وأسرع الناس جميعاً إلى هنا ...إلى هذه الساحة التي تحتوينا الآن، ليفاجئوا بنفر من المسلحين وهم يحيطون بالساحة كإحاطة السوار بالمعصم، كما شاهدوا رجلين من الغرباء يقفان تحت الشجرة، أحدهم يمسك بين يديه دفتراً كبيراً بينما الآخر يشير إلى الشجرة بإشارات مختلفة وعلى فمه ارتسمت ابتسامة خبيثة. منع المسلحين الاهالي من دخول الساحة، وأفهموهم بأنهم سوف يقطعون الشجرة ليقيموا مكانها متحفاً يخلدون فيه تاريخهم المشبوه؛ وباتت القرية في تلك الليلة على أحرَّ من الجمر، وعقدت عدة اجتماعات في مختلف أنحاء القرية، وكان محور الأحاديث جميعها مسألة قطع الشجرة، فقد كانت هذه الشجرة تمثل لهم الكثير ... ولدوا فرأوها صامدة وسط الساحة كأنها نبتت قبل بدء الكون، وهم يعتقدون جازمين بأن من غرس الشجرة هو رجلٌ صالح، وولي من أولياء الله، وأنه حملها رسالة تدعوا الناس للكرم والعطاء كما هي معطاءة. نعم أن مسألة قطع الشجرة شغل ضمائر كل الناس، فقد كان أمراً يصعب عليهم تقبله أو تصديقه، فهل من المعقول بأنهم بعد أيام سوف يروون مكان الشجرة تمثالٌ حجريٌ لرجلٍ يبغضه الجميع ويكنون له الحقد والعداوة....

وقطع أبو القاسم حديثه الشيق الممتع، والتفت إليَّ محدقاً بوجهي ملياً، ثم قال بهدوء: ... لقد كانت غلطة عصبة الأشرار الكبيرة والتي وضعت حداً لنهايتهم هي محاولة قطعه الشجرة ووضع تمثال حجري مكانها .... أجل يا بني، لم يحسب الأشرار أي حساب لقدسية الشجرة وأهميتها بين الناس ....

ثم تابع سرد روايته بعد لحظات من الصمت العميق، فقال وقد ارتسمت على وجهه علامات النشوة والسرور: ـ ... وفي تلك الليلة التي لا يمكن أن أنساها أبداً، استولى الحماس على قلوب الناس جميعهم، فخرجوا من منازلهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، يدفعهم الغضب والحنق والشعور بالغيرة على مقدساتهم. التقت جموع الأهالي الغاضبين في ساحة القرية وهم يتحركون كالموج الهادر والغضب يعتمل ويفور في قلوبهم، وكأن هناك قوةً خفيةً تنظمهم وتدفعهم للخروج بهذه القوة؛ كانوا يصيحون بحنق: ـ الويل للأشرار .... الويل لمن سيقطع الشجرة.

وارتفع وسط الاصوات الساخطة صوت الشيخ نصر الدين العمري وهو يقول بحماس وغضب: ـ أيها الطيبون ... هل ستتركون الأشرار ليقطعوا الشجرة؟ فلتهبوا جميعاً من رقادكم، وقوموا لتحطموا القيد الذي يغلكم من أعناقكم .... ثوروا على جلادكم ثورة رجلٍ واحدٍ والله ناصركم.

ألهب كلام الشيخ مشاعر الناس، وحرك الغضب الساكن الذي يقبع في أعماقهم؛ وفي تلك الليلة شهدت القرية ولأول مرة في تاريخها تلك الثورة العظيمة التي يهتز لها الجبابرة وترتعد منها فرائص الملوك. انتشر جميع الناس في القرية بما توفر لديهم من أسلحة ... مناجل وفؤوس ومعاول وعصي، وبنادق صيد نجت من قبضة الأشرار؛ كانوا يطلقون من صدورهم وحناجرهم الغاضبة جملتهم المشهورة والتي صارت بعد ذلك أنشودة ترددها أرواح الاهالي:

ـ الويل لمن سيقطع شجرتنا.... الويل الويل.

وتعالت الأصوات، وزعق الرصاص يزيد الأهالي حماساً واندفاعاً، وهجم الناس على دار الحكم وقتلوا الحراس ثم أضرموا النار فيها، ثم اقتحمت مجموعة أخرى دار زعيم الأشرار الذي حاول الفرار مذعوراً، ولكن الناس الثائرون استطاعوا الوصول إليه وقتله بين حراسه، ثم أحرقوا داره بعد أن صادروا كل أمواله؛ وامتدت نيران الثورة المتأججة لتصل إلى حي الغرباء حيث دارت فيه معركة رهيبة كان الثوار يستميتون خلالها لإخراج الغرباء من الحي وتطهيره من رجسهم، وكان الغرباء يتراجعون بذعر أمام تلك القوة الجارفة والغضب الذي يقدح من عيون الناس، ومنهم من حاول أن يقاتل مدافعاً دفاعاً يائساً عن حياته، ولكنهم سحقوا تحت سياط الغضب الذي تلفظه أسلحة الثوار. وتم النصر أخيراً للثوار، وبدأ الغرباء بالهرب من موت محتم، وبدأ الثوار بعد ذلك بتطهير القرية من المسلحين الاشرار الذين أخذوا يطلقون النار كيفما اتفق، ومن عيونهم تطل نظرة مرعوبة يتراقص فيها شبح الموت. دارت أكثر من معركة في أنحاءٍ متفرقةٍ من القرية ..... وأخيراً بدأ نور الفجر يظهر من خلف الافق، ثم أشرقت الشمس على جثث القتلى والجرحى. كان الناس الثائرون مايزالون منتشرين في طرقات القرية ... كنت واحداً منهم ... كنا كلما رأينا مسلحاً قتلناه وأخذنا سلاحه ... لقد أدهشني وقتها ضعف الأشرار، كنا نحسبهم أقوياء، ولكننا ما أن حطمنا قيدنا وثرنا على جلادنا حتى تبين لنا ضعف الأشرار وهشاشتهم ... نعم لقد استطعنا بسهولة طرد الغرباء والمسلحين الاشرار من القرية، وكان ذلك عندما تساندنا وتعاضدنا ووقفنا في وجه أعدائنا وقفة رجلٍ واحدٍ.....

قاطعت أبا القاسم متسائلاً: ـ وماذا فعلت جماعة اليد الحديدية؟ ألم ترسل النجدة لحلفائها؟ ألم تحاول جمع شتاتهم من جديد؟

فابتسم وقال: ـ الحقيقة يابني أن جماعة اليد الحديدية عندما أدركت ضعف عصبة الأشرار وهشاشتهم تبين لها بأن هذه العصبة لا تصلح لأن تكون حليفةً لها عندما تقوم الحرب، لذلك أدارت ظهرها لها وتخلت عنها نهائياً.

ثم تنهد تنهيدةً عميقةً طويلةً وقال مختتماً روايته: ... وتحررت القرية .... وعادت كما كانت، وعاد الناس يتنسمون عطر الحرية، وشمخت الشجرة مجدداً بعد أن بذلنا الدم لمنع قطعها، أجل يا بني ... لقد استطاعت هذه الشجرة التي تريح ظهرك الآن على جذعها، أن تجمع في ساعةٍ واحدةٍ جميع أهالي القرية على كلمةٍ واحدةٍ، وتجعلهم يثورون بقوةٍ وغضب لتخليص أنفسهم من الذل والظلم والطغيان ... ومنذ ذلك الوقت أطلق الناس على هذه الشجرة المباركة اسم ((الشجرة المقدسة)) ... كيف لا وقد استطاعت هذه الشجرة أن تثبت قدسيتها، وأن تجعل الناس يتفقون في ساعةٍ واحدةٍ على كلمةٍ واحدةٍ وفعلٍ واحدٍ.

فابتسمت بدوري وقلت بارتياح: ـ نعم ... الحق معك ... أنها شجرةٌ مقدسةٌ حقاً.

ثم ما لبث أبو القاسم أن أغمض عينيه وشرع يغني؛ كان صوته جميلاً حزيناً لم أسمعه من قبل، واستمر في الغناء ... كان يغني بحزن كأنه يذرف الدموع على أطلال الأجداد، وأحسست بنفسي تهوي في عالمٍ سحيقٍ تظهر فيه وجوه الناس الغابرين الذين قاتلوا واستشهدوا فوق هذه الأرض، وشعرت بكل شيءٍ حولي يغرق في بحر الحزن، وانتابتني قشعريرة مباغتة وأنا أسمع الصوت الحزين يعلو ويهبط وينشر حزنه الخفي. واستمر هذا السحر، وبقيت النشوة تغمرني إلى أن حل الظلام.

إنتهت

أحــلام فــوق الثــلــج

لم يصدق نادر عينيه وهو يمسك جريدة اليوم بين يديه، فرك جفنيه بسبابته جيداً حتى يتأكد تماماً من أن عينيه لا تخدعانه، ثم عاد يمعن النظر في الإعلان المنشور في الصحيفة في الصفحة الأخيرة وأخذ يقرأ بصوتٍ مرتفع بعض الشي:

(تفتتح اليوم الفنانة "سهى إبراهيم" معرضها الاول للرسم والنحت، في صالة النجمة، وذلك في تمام الساعة السادسة مساءً، اعتباراً من تاريخ 2/1 وحتى 2/10 .....)

تمتم بذهول: ـ سهى إبراهيم!؟ .... يالله ... أيعقل هذا؟ ... ربما.. ربما تشابه أسماء.. ولكن سهى رسامةٌ أيضاً .... هل هذه مصادفة؟ أم أنها هي؟ .... لا بد أنها هي.

استند في مقعده للخلف، وترك الجريدة تسقط من يديه أرضاً، ثم أغمض عينيه ورفرفت على شفتيه ابتسامة طفولية، وطارت به الذاكرة إلى الوراء ... إلى الماضي ... إلى أيام الجامعة، أيام الشباب، وتجسدت له صورة سهى ابراهيم في تلك الايام، كانت جميلة جداً لم يرَ أجمل منها بين بنات الجامعة، كانت تخلب الالباب بقوامها الرشيق، بشعرها الاسود الفاحم الطويل، بوجهها الأبيض المستدير وعينيها الداعجتين، لقد حاول الكثير من طلاب الجامعة أن يخطبوا ودّها، حاولوا وحاولوا، ولكنها صدّت الجميع وأبت ألا أن تكون علاقتها مع هؤلاء الشباب مجرد صداقة وزمالة، وكان هو الطالب الوحيد الذي نجح في اختراق أسوار قلبها المنيعة.

لم يكن نادر بالشاب الوسيم الذي يلفت أنظار البنات، كان شاباً عادياً، معتدل الطول، ذا شعر أسودٍ مرجلٍ للخلف، وحاجبين كثيفين، وعينين بنيتين، وأنفٍ مستديرٍ، وأكثر ما كان يميزه جبهته العريضة الناتئة قليلاً للأمام، ومع ذلك كان الشاب الوحيد الذي أحبته سهى وفتحت له قلبها منذ اللقاء الأول.

تزايدت ابتسامتة وهو يتذكر كيف كان لقاؤهما الأول في حديقة الجامعة بكلية الحقوق، كان لقاءاً عادياً جداً ولكنه شديد الطرافة، حين أبصرها تسير لوحدها في أحد ممرات الحديقة المشجرة بعيد العصر، وقدر بأنها تتجه إلى ركن الحديقة المنعزل نسبياً، لحقها على الفور وقلبه يخفق بسرعة لفرط الانفعال، كانت تلك محاولته الاولى للتقرب منها، وهو الذي طالما سمع من زملائه عن محاولاتهم اليائسة للظفر بقلب سهى المستعصي على الجميع، وكانت الرغبة تزداد في قلبه يوماً بعد يوم للفت نظر سهى إليه ... سهى ..."وردة الجامعة " ... كما أطلق الطلاب عليها، نعم لقد صار هاجسه وحلمه ومنيته كسب ودِّ سهى والفوز بقلبها، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وسهى تصدُّ الجميع؟ الغني والفقير، الصعلوك وابن الوزير، الجميل الحسن، وفائق الجمال، المؤدب والسفيه، الغبي والذكي؛ وصارت سهى ابراهيم قصة طلاب الجامعة الرئيسة التي يتناقشون فيها ويتبادلون الرأي في

غموضها، ويزجون أوقات فراغهم في قراءة ما بين سطورها، وقد أيقن الجميع في نهاية الأمر بأن سهى لا بد وأنها تعيش علاقة حب مع شاب من خارج الجامعة، وكان ذلك مايقلقه ويخيفه.

وعلى هذا أصبح الولوج إلى قلب سهى حلماً يبرق أمام المعجبين، وهدفاً مستحيلاً للعابثين.

ازدادت سعة ابتسامة نادر وهو ما يزال يسترجع في ذاكرته مشهد اللقاء الأول مع سهى التي لم تكن تعرفه من قبل معرفةً جيدةً، بل هي مجرد نظرات غير آبهة ألقتها عليه عرضاً خلال المحاضرات أو في حديقة الجامعة؛ وبعد أن رآها تتجه إلى ركن الحديقة تبعها بسرعة، ورآها وهي تهم بالجلوس على إحدى المقاعد الخالية، فصاح بها:

ـ آنستي ... أنصحك بعدم الجلوس على هذا المقعد.

فنظرت إليه بترفعٍ وقالت بلا اكتراث كعادتها عندما تكلم أحد الشباب الذين يتعرضون لها في كل ساعة محاولين استمالتها: ـ وما شانك أنت؟

ثم أضافت بسخرية: ... مابال المقعد؟ .... هل هو مسكون بالأرواح الخبيثة؟

فابتسم قائلاً: ـ اعذريني لتطفلي ولكن ...

فقاطعته بحدة: ـ ها أنا أجلس عليه الآن ... والآن ماذا تريد؟ ... قل وأختصر.

قالت ذلك وجلست على عجل، فهز برأسه أسفاً، في حين نظرت إليه سهى بنظرةٍ ممزوجةٍ مليئة بالشك، فقال متظاهراً بالأسف والحزن: ـ لقد نصحتك فلم تأخذي بكلامي على محمل الجد ... والآن قومي وانظري ماذا حلَّ بك.

فرمقته بشك وخوف، ثم قامت واقفةً، وارتاعت حين اكتشفت بأن المقعد الخشبي قد طلي حديثاً، فشهقت بأسف، بينما قال: ـ ألم أنهك عن الجلوس؟ هاقد فسد الفستان.. انظري ... ثلاثة خطوط متوازية قد علقت على فستانك.

فتمتمت بغضب وحنق بكلمات غير مفهومة، ثم قالت بحدة: ـ كان لا بد لهم من أن يضعوا لافتة تنبيه، ليعلم الجميع بأن المقعد مطلي حديثاً.

فضحك وقال ساخراً: ـ لقد فعلوا، وقد شاهدت اللافتة موضوعةً هذا الصباح، ولكن يبدوا أن أحد الشباب العابثين قد نزعها وأخفاها عمداً.

ثم ابتلع ضحكته الساخرة وهو يرى مدى الذعر والارتباك الذي ألم بسهى فقال بلهجةٍ جادةٍ: ـ وعلى كل حال فأنا قمت بواجبي ونبهتك للأمر...

فقاطعته سهى قائلةً: ـ كنت أظنك ....

فقاطعها بدوره قائلاً: ـ كنت تظنين بأني أحاول مضايقتك كما يفعل باقي الشباب .... أنت مخطئةً في ذلك ... صحيح بانك فتاةٌ جميلةٌ جداً.. بل فائقة الجمال، يتمنى أي شاب نيل رضاك، ولكن هذا لا يعني بأنني أهدف إلى ما يهدف إليه الآخرون، أو أن أستعرض نفسي امامك لأفوز بودك.

فابتسمت ابتسامةً داخليةً، ونظرت إلى عينيه تحاول أن تكتشف خبيئته وتستشف ما بداخله، ثم ما لبثت أن شرعت تسير بعد أن ودعته بكلمات مقتضبة.

وظل واقفاً مكانه وقد ألهبت نظرتها العميقة الأخيرة مشاعره، وجعلته يحلق عالياً فوق السحاب.

كان هذا اللقاء القصير السريع هو الشرارة الاولى التي أشعلت حبهما بعد ذلك، وتوالت اللقاءات فيما بعد بشكل متقطع، كان يراها بين الحين والآخر، فيتحادثان قليلاً كزميلين عاديين تعارفا في موقف مضحك، ولكن تلك اللقاءات القصيرة كانت تترك أثرها العميق في قلبه، فتؤرقه في الليل وتعده بأحلامٍ كثيرةٍ، وتطير به عالياً فيحس بأنه أسعد مخلوقٍ يدب على الأرض، فقد حباه الله ما تشتهي روحه الظامئة .... إنه الحب ... كان يقول هذه الكلمة السحرية يستفتح بها لياليه الطويلة المليئة بالغموض والسحر والأحلام، والخواطر والأمنيات، وكان في آخر كل ليلة بعد أن تشبع روحه من رحيق الحب والوجد، يعقد العزم على أن يصارح سهى بحبه لها، ولكنه في الصباح يحجم عن ذلك بعد أن تتلبد سماء مشاعره بالأفكار المحبطة والهواجس المخيفة ...ماذا لو صدتني سهى؟ ... ماذا لوعاملتني باحتقار كما تعامل الشباب العابثين؟ كيف سيكون حال مشاعري آنذاك؟ ... أكيد سوف أخسرها نهائياً ولن أجرؤ بعد ذلك على التحدث إليها وممازحتها كما أفعل الآن، وسأخسر عندها تلك اللحظات السعيدة التي أسمع فيها صوتها وأشاهد ابتسامتها الفاتنة، وكان يقول لنفسه في آخر الأمر:

ـ (حسبي تلك اللحظات القصيرة مع سهى والتي تشحن مخيلتي بأرق الأحلام والأمنيات).

وعاش أياماً كثيرة في حومة هذا الصراع المرير، ينبثق الأمل والتصميم في قلبه عند المساء، ثم يتلاشى عند الصباح كما تتلاشى خيوط الدخان في الهواء، ولكن نار الوجد والحب تغلبت في نهاية الصراع على مخاوفه ووسوساته، وكان ذلك اليوم الذي باح بحبه وعشقه.

فتح عينيه وضحك في سره وهو يتذكر كيف كان خجولاً، بل كان خائفاً جداً يوم صارح سهى بحبه، كانت تنظر إليه بهدوء وهما يقفان تحت شجرة الكينا الوارفة. قال بارتباكٍ وترددٍ: ـ سهى ... كنت أريد أن أقول ... أقصد أنني.. حسنٌ... لا بد مما ليس من بد ... الحقيقة يا سهى ... يبدو أنني.. أحبك.

وسكت عن الكلام وفي نفسه تعتمل عشرات الأشياء، وقلبه ينقبض وينبسط بعنف. كان يحس بأن مصيره النهائي مرتبطٌ بكلمةٍ تخرج من فم سهى الجميل، ولكن انتظار هذه الكلمة قد طال كثيراً، فقد أطرقت سهى برأسها بعد تصريحه، بينما وقف هو حابساً أنفاسه منتظراً على نار اللهفة المحرقة، وقد غابت عن أذنيه الأصوات من حوله، وأخيراً وبعد صمت ثقيل مشوب بالتوتر والانفعالات الكثيرة، رفعت سهى رأسها البديع التكوين ونظرت إليه بنظرة القاضي الذي يستعد لينطق بالحكم على أحد المتهمين، بينما ارتفعت دقات قلبه وهو يتوقع أن تزدريه سهى ثم تغادر المكان غير حافلةٍ بمشاعره، ولكن حدث عكس المتوقع، فقد ابتسمت سهى ابتسامةٍ صغيرة وقالت باقتضاب: ـ وأنا أيضاً.

وغادرت المكان على عجل.

نهض واقفاً عندما بلغت ذكرياته تلك اللحظة السعيدة، ثم اتجه إلى مكتبته وفتح درجاً صغيراً، وأخرج علبة السجائر والولاعة، ثم أشعل لنفسه سيجارة ونفخ دخانها بتلذذ، وعاد لمقعده يسترجع تفاصيل تلك الأيام السعيدة. كان اللقاء الذي صارح فيه سهى بحبه فريداً جداً، فبعد أن نطقت سهى بالحكم على قلبه، وبرأته من المخاوف والشكوك والوساوس، غادرت بسرعة؛ وحتى الآن لم يعرف ماهو السبب الذي دفع بها لمغادرة المكان بعد أن قالت له: (وأنا أيضاً) دون أن تذكر كلمة أحبك، ولم يسألها بعد ذلك عن حقيقة الأمر، وأخذ يفكر بعد مضي هذه السنين: ـ (هل يمكن أن تكون سهى قد شعرت أخيراً بالهزيمة أمام سلطان الحب القاهر، فألقت أسلحتها وغادرت ميدان المعركة وأعلنت الهزيمة قبل أن يلمح خصمها نظرات الانكسار في عينيها، وهي التي لم تهزم من قبل وبقي قلبها عصياً على الاختراق؟ ... وهل كان الحب هزيمة؟ هل كانت سهى تعتقد أنها في ميدان معركة أو ساحة حرب يفوز فيه أخيراً من يستطع أن يقتحم حصون قلبها؟).

وعلى كل حال فقد انتصر هو في النهاية وصار حديث الجامعة وشغلها الشاغل لأكثر من شهر، وأصبح الشباب يتغامزون إذا مر بجانبهم ويقولون: ـ هذا الذي انتصر على قلب سهى وحطم غرورها.

وآخرون كانوا يقولون: ـ لقد نجح نادر في لم ينجح به غيره، واستطاع أن يلج إلى أعماق قلب سهى ويكشف أسراره ... إنه يستحقها.

ولم يخلوا الأمر من تعليقات بعض الحاسدين الذين كانوا يقولون بسخرية وغيظ: ـ مالذي أعجب سهى بنادر؟! فلاهو يمتلك وسامة صارخة، ولا ذكاءاً متقداً، ولاجيوباً ممتلئة، ولامركزاً اجتماعياً مرموقاً تحظى به أسرته المتواضعة، لقد تقدم لسهى من هو أفضل منه بكثير!

وأما العاشقان فقد كانا بمعزل عن ذاك الكلام، كانا يعيشان في عالمهما الجميل المملوء بالحب والأحلام والأمنيات.

تنهد بعمق وعبَّ من سيجارته بشراهة، وقال في نفسه: (لقد كانت أياماً جميلةً جداً).

وعاد يطير بذاكرته المتيقظة إلى تلك الأيام الجميلة، أيام الشباب والانطلاق والمرح والبساطة وراحة البال، إنه يتذكر جيداً تلك الرحلات الترفيهية التي كانت تنظمها إدارة الكلية، وأجمل تلك الرحلات التي يتذكرها جيداً كانت رحلة الجبل، حيث الثلج يغطي المكان، كان منظراً بديعاً، بساطٌ أبيض يغطي الأرض تنعكس عليه أشعة الشمس الخجولة المنهكة، فتتلألأ ذرات الثلج الناصعة كحبات الألماس، ويمتد هذا البساط المتلألئ حتى قمة الجبل فيحضنه ثم يهبط للوادي الفسيح، وكان العشاق يتراكضون فوق الثلج بمرح، ثم يتراشقون بكرات الثلج الباردة، ويتساقطون بصخب فترتفع ضحكاتهم عالياً كأنه لا همَّ لهم إلا الجري واللعب.

وكان هو وسهى يحّسان بنفسيهما أسعد مخلوقين في ذلك الوقت، جمعهما الحب وألّف بين قلبيهما بقوة.

كانت سهى فتاةٌ حالمةٌ أسعدها أن تجد انعكاس روحها في نصفها الآخر. جلسا على الثلج بعد أن أتعبهما الجري واللهو، وقال يخاطب سهى بلهجةٍ حالمةٍ: ـ أحب أن يكون لنا بيتٌ جميل هنا .... في حضن هذا الجبل، تغطيه الثلوج في الشتاء، وتزهر الورود حوله في الصيف.

وقالت سهى مكملةً حلمه: ..... وتكون بالقرب منه بركةٌ صغيرةٌ فيها أسماكٌ كثيرةٌ وبط، تنمو حول البحيرة الأزهار والأشجار، وتطير العصافير متنقلةً بينها.

ابتسما لبعضيهما، وقال بثقة وتصميم: ـ سيكون لنا ذلك يا حبيبتي .... المستقبل أمامنا.... الدنيا ستفتح لنا ذراعيها ... أليس كذلك؟

فأومأت برأسها وقالت: ـ أجل ... لا بد من تحقيق ما نحلم به ونصبوا إليه.

ثم اندفعت فجأةً راكضةً إلى الحافلة القريبة، وعادت بعد قليل تحمل حقيبةً جلديةٍ أخرجت منها أدوات رسم؛ ورق وأقلام فحم وممحاة، ثم جلست بالقرب منه، بينما أخذ يرقبها بدهش طفولي وهي ترسم ببراعة.

بعد قليل انتهت من الرسم؛ رفعت اللوحة بين يديها وقالت بسرور: ـ ما رأيك يا عزيزي؟

ابتسم بسرور عظيم، وتملكه العجب الشديد، فقد كانت لوحةً رائعةً جداً تصور شباباً وشاباتٍ يتراكضون فوق الثلج الأبيض الناصع والابتسامة تضئ وجوههم، وخلفهم الجبل الشاهق متشحاً برداءٍ أبيضٍ أكسبه هيبةً وجمالاً. قال وهو ما يزال على دهشه: ـ لم أكن أعلم بأنك تجيدين الرسم بهذه البراعة يا سهى! حقاً إنها لوحةٌ رائعةٌ.

فابتسمت خجلاً وتواضعاً، ولم يتماك نفسه فطبع على خدها قبلةً سريعةً ثم ضمها إلى صدره وهو يقول: ـ أنت فنانةٌ رائعةٌ يا سهى ... سيكون لديك مستقبلاً مشرقاً.

فأغمضت عينيها وقالت كالحالمة: ـ نعم ... سأتخرج من كلية الحقوق بامتياز، وسيكون لدينا منزلنا الجبلي الهادئ، وسأخصص فيه غرفةٌ صغيرةٌ أجعلها مرسماً أمارس فيه هواية الرسم ... ستكون جدران الغرفة بلون السماء الصافية، ونوافذها خضراء تحاكي الطبيعة البكر ... سأملؤها باللوحات الجميلة ... أجل... وبعد ذلك سأفتتح المعارض.. ستكون جميعها ناجحةً وستكتب الصحف والمجلات عن الرسامة الموهوبة " سهى إبراهيم".

فضحك بمرح وقال: ـ نعم ... سيكون لك ذلك، ولكن يجب ألا يصرفك هذا عن ممارسة عملك الحقيقي الذي ستحصلين عليه بعد تخرجك من كلية الحقوق.

ثم تنهد بعمقٍ ثم قال بدوره يحيك فصول أحلامه: ـ وأنا ايضاً سأخصص في بيتنا الجبلي غرفةً لي، فيها مكتب فاخر، ومكتبة ضخمة تزخر بالكتب المنوعة والقيمة.

نظرت إليه ملياً ثم قالت: ـ وسيكون لديك مكتبٌ ضخمٌ وسط المدينة معلقٌ على بابه من الخارج لافتةً مذهبةً تحمل اسم المحامي الكبير" نادر ناصر"، وسيتقاطر الناس إلى مكتبك من كل حدبٍ وصوبٍ..... سيكون عندك زبائن كثر، وقضايا كثيرة ... ستكون أشهر محامي في البلد.

فقال متسائلاً: ـ وأنت .... هل ستعملين معي في المكتب أم سيكون لديك مكتبك الخاص؟

قهقهت ضاحكةً وقالت بخبث: ـ لا يا حبيبي ... أنا سأكون القاضية التي تترافع أنت أمامها.

وطفقا يضحكان بمرح وسرور، وما لبثا أن قاما يجريان فوق الثلج كطفلين صغيرين.

*****

أطفأ السيجارة التي كادت أن تحرق أصابعه، ثم قام واقفاً واتجه صوب النافذة المطلة على الشارع. كان المطر قد بدأ بالهطول رذاذاً، وبدأ الناس يتراكضون هرباً من رحمة السماء للاحتماء تحت الشرفات بعد أن بدأت حدة المطر بالتزايد. هزَّ برأسه وقال لنفسه بحسرة: ـ (إيه ... لقد انقضت تلك الأيام السعيدة وطواها الزمان في مجاهله).

إنه مايزال يذكر بألم لقاءه الأخير بسهى؛ يذكره جيداً بكل تفاصيله التي لم تبرح ذاكرته على مر السنين؛ كانت حزينةً جداً وهي تتحدث إليه بصوت منكسر النبرات لم يعتد على سماعه منها.

ـ كل شيءٍ انتهى يا نادر.

ـ لماذا ... مالذي حدث؟

ـ لقد تقدم ابن عمي لخطبتي .... ووافق والدي.

صعق فور سماع النبأ، وانعقد لسانه من الصدمة، وظل لدقيقة يزدرد الصمت وقد أحس برأسه يدور في دوامةٍ، وبالخدر يسري في أوصاله، واستطاع أن يتمالك نفسه بعد قليل ويقول بصوت مخنوق: ـ وأنت يا سهى .... ماذا فعلت؟

ـ أنا أحبك يا نادر، وأنت تعرف ذلك جيداً.

غلبتها العبرات فاختنق صوتها في صدرها، ولكنها تمالكت نفسها وحاولت أن تتكلم، وبالكاد استطاعت أن تقول:

ـ لقد وافق والدي ... وافق بلا تردد.

ـ وابن عمك؟

ـ إنه شاب غني ... تاجرٌ كبير... ولكنه غير مثقف ... لم يحصل إلا على الشهادة الإعدادية.

فقال بلهجةٍ مهزومة: ـ هذا يعني بأنك موافقة؟!

وأجهشت بالبكاء ولم يحاول تهدئتها، وأخيراً رفعت رأسها وقالت بصوتٍ مخنوقٍ معذبً: ـ أنا لا أحب أحداً سواك يا نادر ... لكن مالعمل؟ ... إنه والدي ... إنه رجلٌ قاسٍ أعطى كلمته لعمي ولن يتراجع عنها أبداً.

وقال بلا إرادةٍ منه وكأن أحداً غيره يتكلم بلسانه: ـ كنت أحسبك فتاةً ذات شخصيةٍ متميزةٍ لا تضارعها شخصية أي فتاة في الجامعة، كنت أراك وأنت تخطرين في الكلية لا تعيرين أحداً أي اهتمام، فقلت لنفسي: هذه الفتاة التي أتمناها ... فتاةٌ قوية تعرف ماذا تريد، ولا تسمح لأحد بالنيل منها .... ولكن ... مالذي أسمعه الآن؟ وأي فتاةٍ

أراها أمامي! ... تهرب من المواجهة وتلوذ بالبكاء كأي امرأةٍ شرقيةٍ مغلوب على أمرها، ولا تستطيع حتى أن تقول.. لا .... هل هذه أنت يا سهى؟!

فرفعت إليه عينين دامعتين ممتلئتين بالدهشة والحيرة، ثم قالت بصوت حاولت أن تجعله متماسك النبرات:

ـ لست فتاةً ضعيفةً كما تتهمني، ولكنني في النهاية فتاةٌ شرقيةٌ معجونةٌ بتقاليد الشرق وأعيش في كنفه، وأنت تعرف ماذا يعني أن تتحدى الفتاة إرادة أهلها، وتلك الألسنة الطويلة ستحز عنق والدي وتسربله بالعار، ووالدي في نهاية الأمر رجلٌ ريفي مشبع بعادات وتقاليد أهل القرى، وهو يعتبر بأن الخروج عن تلك العادات الموروثة هو الجنون بعينه.

وغابت الأصوات في دوامة القهر الذي ابتلعه، ولم يعد يسمع شيئاً، وغرق بأفكاره...

(... أنا فقير .... طالبٌ تعيس أعيش عالةً على والدي .... وسهى ... آه من والدها وابن عمها ومن عادات الشرق ... والتخرج مازال بعيداً... والحياة القاسية تطحن الفقير الضعيف ... أين العدل في هذا؟ ... أين العدل .... هل أصبح الحب يشترى بالمال؟!).

وعاد لرشده، ثم قال بصوتٍ عميق: ـ إذاً لقد انتهى كل شيءٍ يا سهى.... وتلك الأمنيات السعيدة التي تمنيناها، وتلك الأحلام الكبيرة التي بنيناها فوق الثلج ... كانت سراب ... كانت فقاقيع ملونةٍ جميلةٍ ما لبثت أن انفجرت في الهواء ساخرةً منّا ومن سذاجتنا.

حاولت أن تتكلم فقاطعها بإشارةٍ من يده وقال بحدة: ـ لا تقولي أي شيءٍ يا سهى ... لقد قلت ما يكفي.

ولكن سهى اندفعت تقول مدافعةً عن نفسها دفاع الغريق اليائس: ـ لا تظلمني يا نادر ... لقد رفضت ... قلت لا ... رفعت صوتي عالياً، ولكن صوت عمي وأبي كانا الأقوى.

فقال ساخراً: ـ صوت أبيك وعمك وصوت عشرات السنين من التخلف والجهل والعمى.

ثم أضاف بصوت يائس: ... لا يا سهى ... إنه ليس صوت أحد ... إنه صوت الجشع والطمع والأنانية ... إنه صوت المال الذي يهدم الخلق الكريم، ويقتل الحب في القلوب، ويطعن الشرف في كبريائه.

ثم قام واقفاً ونظر إلى عيني سهى المغرورقتين بالدموع وقال بأسى: ـ هكذا هي الحياة، إنها مليئة بالبشر الجشعين الذين لا يهمهم سوى جمع المال ... المال ... نعم المال ... يتجاهلون كل شيءٍ على حسابه ... الحب .... العواطف والمشاعر ... كل هذه الأشياء تافهة ولا معنى لها في شرعهم ... إنها بضاعةٌ كاسدة.

ثم قال يسخر من نفسه: ... عليَّ إذاً البحث عن فتاة فقيرةٌ معدمةٌ ترضى بي، والأفضل ألا يكون عندها ابن عم غني.

وجر قدمين ثقيلتين مبتعداً عن سهى التي دفنت رأسها بين ذراعيها تبكي بشدة للوداع الأخير.

وتوالت الأيام، وانقطع عن رؤية سهى نهائياً، وعلم بعد ذلك بأنها تزوجت وسافرت مع زوجها، ثم تخرج من الكلية واستطاع بعد أن كافح سنوات عديدة أن يفتتح مكتباً متواضعاً في إحدى ضواحي المدينة، وأن ينجح في عمله، ثم تزوج من فتاةٍ بسيطةٍ متوسطة الجمال عن طريق والدته.

ومضت الأيام في تقلباتها ومفاجآتها، وصار من أشهر المحامين في البلد، وكان مما حفزه على النجاح والتفوق قصة الحب التي عاشها والتي انتهت تلك النهاية المؤلمة التي طعنته في كبريائه.

تذكر كل تلك الذكريات القديمة وهو يقف بالقرب من النافذة، يشاهد الأمطار الغزيرة التي تنهمر على المدينة؛ هز رأسه بعنف ثم عاد والتقط الجريدة الملقية على الأرض وقرأ الإعلان مجدداً وابتسم بمرارة. وصحا من شروده على صوتٍ انتشله بسرعة وقوة من ذكريات الماضي وأعاده إلى واقعه.... كان صوت زوجه تدعوه للعشاء.

*****

كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف عندما خرج نادر من منزله، كان هواء الليل منعشاً بعد توقف الأمطار عن الهطول؛ لفحت وجهه نسائم باردة زادت من انتعاشه، وأخذ وهو يسير في شوارع المدينة يحدث نفسه والنشوة والانفعال يسيطران عليه: ـ (ترى وبعد كل هذه السنين، كيف حالها ... هل تغيرت كثيراً بعد عشرين عاماً من الفراق؟ ... هل استطاعت يد الزمان أن تنال من جمالها وفتنتها؟ ...هل مازالت تذكرني وتذكر قصة الحب التي عشناها؟ أما زالت تمتلك ذلك السحر الغريب في ملامحها، وتلك الابتسامة المشرقة على الدوام؟ ...آه.. ماذا عني أنا؟ لقد غزا الشيب شعري، وظهرت بعض التجاعيد تحت عينيَّ.

انقطعت خواطره عندما بلغ ساحة المدينة الرئيسة، ثم توقف قليلاً وأخذ يرقب حركة السيارات التي لا تهدأ، والمارة الذين يروحون ويجيئون كلٌ كما قدر الله له، وفكر (والآن ...إلى أين أمضي؟ إلى المقهى حيث مجلسي المعتاد بين أصدقائي، أم إلى المعرض حيث العودة إلى الذكريات بعد كل تلك السنين المنصرمة؟).

تردد كثيراً قبل أن يحسم أمره ويتجه صوب المعرض.

ولما بلغ صالة النجمة توقف قليلاً عند الباب، استجمع شجاعته ولملم نفسه المشتتة، ثم أمسك أنفاسه المتسارعة الخارجة عن إرادته ... تنفس بعمقٍ ... ثم دخل.

كانت الصالة واسعة وأنيقة تغص بالرواد الذين أتوا ليشهدوا ولادة المعرض الأول للفنانة سهى ابراهيم، وانتشر الحضور حول اللوحات ليتذوقوا الفن الجميل، وعطرت الأجواء موسيقا هادئة، وشعر بالدهشة والسرور معاً وهو يستمع إلى أنغام الموسيقا، وهمس بنشوة: ـ يالله ... إنها نفسها...موسيقى "رجل وامرأة".. هذه الموسيقى التي عرفتها قبل عشرين عاماً ... نعم إنها الموسيقى المفضلة عندي.. آه كم استمعت إلى أنغامها الساحرة برفقة سهى، لقد كانت هديتي الأولى إلى سهى كاسيت يحمل اسم " رجل وامرأة".

بحثت عيناه المتشوقتان في أرجاء الصالة ... أين هي؟ ... آه إنها هناك، ووقع بصره عليها حيث تقف، وعلى الرغم من مرور السنوات الطويلة إلا أنه عرفها على الفور، كانت تقف مع نفر من الرجال والنساء قرب إحدى اللوحات الكبيرة، وكانت تشير بيدها إلى اللوحة وكأنها تشرح المعاني الخفية التي تنطوي عليها. راقبها جيداً ثم ابتسم وهو يقول لنفسه: ـ (إنها هي ... لم تتغير بعد كل تلك السنوات وكأن الزمن قد توقف عنها. ما تزال تمتلك ذلك القوام الرشيق وإن بدا ممتلئاً قليلاً، ومازال تمتلك النظرة المتألقة والابتسامة المشعة، وذلك الشعر الأسود الفاحم الذي يحاكي في سواده دياجير الظلام).

تقدم ببطء إلى حيث كانت تقف، لم تره وهو يقف إلى جانبها ويستمع إلى كلامها.

(ما أحلى الكلام الذي يخرج من بين شفتيها).

ثم نظر إلى اللوحة التي كانت تشد أنظار الحضور المعجبين، ولم يتمالك نفسه فشهق رغماً عنه من الدهشة، وتمتم بعجب:

ـ أيعقل هذا؟! ... هذه اللوحة ...لوحة الثلج... والركض فوق الثلج ... والحب فوق الثلج.... والرقص والأحلام فوق الثلج.

إنه لم ينس لحظةً واحدةً تلك اللوحة التي شهد مولدها بعينيه، والتي عاش أحداثها وتفاصيلها السعيدة؛ لقد حولتها سهى إلى عملٍ فنيٍ كبير.

وهمس بحنين: ـ أحقاً مازلت تذكر أحلامنا فوق الثلج؟

انتهت سهى في هذه اللحظات من حديثها وقالت في الختام وهي توزع على الجميع ابتسامتها الدافئة: ـ ...وهذا كل شيءٍ تتضمنه لوحة: **أحلام فوق الثلج**".

ابتسم بسرور وقال بصوت مرتفع بعض الشيء وهو يحس بقلبه يكاد يغوص بين جنبيه: ـ لقد كانت أحلام جميلة حقاً ... ولكنها ماتت قبل أن تولد.

التفتت سهى بسرعة إلى مصدر الصوت، ووقعت عيناها عليه؛ حدقت به ملياً، تمعنت في تفاصيل وجهه، وتسارعت ضربات قلبها تخبرها:

(هذا الوجه ليس بعيداً عن ذاكرتي).

وجمدت عيناها متأملةً تفاصيل الوجه الباسم الحزين، وطارت بها الذاكرة تقطع السنين إلى ما قبل عشرين عاماً، فشهقت وقالت لنفسها بذهول:

(إنه نادر ... أجل ... إنه هو بلا شك).

أخرجها من ذهولها صوت نادر؛ كان يتحدث وهو يقف في مواجهة اللوحة تماماً، وسمعت صوته يقول كأنه قادم من أعماق السنين الآفلة يحمل في نبراته حنيناً جارفاً: ـ أهنئك يا سيدتي ... إن هذه اللوحة أجمل لوحاتك على الإطلاق ... إنها تحمل قصة حب عظيمة لم تكتمل فصولها.

ثم حول بصره إليها، والتقت عيناهما للحظات استشعر خلالها بأنه عاد إلى الماضي بكل لحظاته الحلوة، ثم غرق في سواد تلك العينين، وجرفه تيار الحنين الذي يدور كالدوامة ليبتلع كل شيءٍ، وأغمض عينيه فجأة ثم استدار هارباً من تلك النظرات التي رآها والتي استطاعت أن تخترق قلبه لتنفذ إلى الصميم؛ لقد رأى في تلك النظرات السريعة الشوق والحنين، والحب الذي مايزال يعيش في قلبها.

سار إلى خارج الصالة وهو يقول لنفسه: (حسبي أني رأيتها بعد كل هذه السنين).

ولما صار في الخارج، أخذ يسير على مهل وكأنه مشدودٌ بقوةٍ خفيةٍ تجره إلى الوراء، فتوقف واستدار إلى الخلف، كانت تقف عند باب الصالة تنظر إليه. أحس بأن نظراتها الحزينة المشتاقة قد اخترقته، وشعر بقوةٍ كبيرةٍ تشده إليها ... إلى الماضي؛ وفكر بأن يعود، وهمس لنفسه:

ـ (ولكن إلى أين؟ ... لا ...سيكون ذلك جنوناً بعد كل تلك السنين. لقد انتهى كل شيءٍ منذ زمنٍ بعيدٍ .... انتهى عندما ربطت حياتي بحياة امرأةٍ أخرى صارت أماً لأولادي... سيكون الرجوع للوراء خيانةً لتلك المرأة المخلصة).

ونظر إلى عينيها الساحرتين نظرةً أخيرةً، وشاهد فيهما حناناً جارفاً وحباً عظيماً أعاده إلى الماضي ولحظاته الجميلة، ومرَّ طيف تلك الأيام أمام ناظريه بسرعة يضوع منه شذى االلحظات الندية، فابتسم رغماً عنه وشاهدها أيضاً وهي تبتسم ابتسامتها المشرقة التي لم تتغير والتي سكنت ذاكرته على مر السنين؛ ثم استدار وأخذ يمشي بسرعة مبتعداً عن المعرض... تاركاً قلبه وذكرياته وراءه.

إنتهت

مدينة بلا أرواح

بعد غيابٍ دام أكثر من خمسة عشر عاماً عدت إلى مدينتي الجميلة، أو هذا ما كنت أظنه قبل أن تطأ قدماي أرض المطار. والآن وقد احتوتني هذه المدينة الأثيرة إلى قلبي، بدأت الصور تتوالى تباعاً.

حملت حقائبي التي ضاقت بما فيها، ولم ألبث في وقفتي على الرصيف أكثر من بضع ثوانٍ حتى توقفت سيارة أجرة بالقرب مني؛ نزل السائق الملتحي وهرع يحمل الحقائب دون أن يكلمني، بل اكتفى بأنه ابتسم في وجهي ابتسامةً عريضةً خبيثة، ثم قال وهو يفتح الباب لي بصوتٍ تعمد أن يجعله رقيقاً: ـ تفضل يا أستاذ.

وفي الطريق إلى قلب المدينة أخذت ألتهم المناظر التي تمر بي بعينين شرهتين.... الأبنية ...الشوارع ... الحدائق .... الناس ... السيارات .... وشرطة المرور الكثيرين!

وقلت في نفسي: ـ (إيه ... هل هذه مدينتي التي تركتها قبل خمسة عشر عاماً؟ يا إلهي كم تغيرت! ...لقد تبدلت كثيراً كثيراً).

لاحظ السائق دهشتي وحيرتي فقال بمكر: ـ أظن أنك مكثت طويلاً هناك؟

فنظرت إليه ببلاهة، فقال موضحاً: ـ أقصد في بلاد الغربة ... بلاد الحرية...بلاد الجمال والمال .... والنساء الفاتنات و ...

فقاطعته محتداً: ـ ...لا ...تلك البلاد ليست أجمل من بلادنا.

فهز رأسه وابتسامةً ساخرة ترفرف على شفتيه، وكأن لسان حاله يقول: (ما الذي عاد بك).

أنزلتني السيارة في وسط المدينة بعد أن نقدت السائق مبلغاً ضعف الذي ظهر على العداد، وضحكت من بلاهتي وأنا أتذكر شكوى السائق وتذمره من ارتفاع أسعار المحروقات، ومن شرطة المرور، ومن الإجحاف الذي يطال سائقي سيارات الأجرة، وبعد أن أصبحت الأجرة في جيبه ودعني بكلمات كثيرة لم أحفظ منها شيئاً.

وقفت في الساحة الكبيرة الرئيسة، وأخذت أحدق بما حولي بغرابة.

كم تغيرت مدينتي الجميلة هذه؟!

أخذت أسير الهوينا وعيناي تجولان من حولي. قادتني قدماي بعد طول المسير إلى مقهى صغير مكتظٍ بالناس، لم أعرف كيف بلغته بهذه السرعة، دخلت المقهى لأحظى ببعض الراحة من عناء حملي الحقائب الكبيرة.

كم افتقدت هذه المقاهي الأليفة هناك؛ هذه المقاهي البسيطة، وهذه الوجوه الوديعة، ولكن مالي أرى وجوهاً غير التي تركتها قبل خمسة عشر عاماً؟!

... ماهذه النظرات الزائغة؟! ... وما هذه الوجوه المعتمة؟!

اقتعدت كرسياً في أقصى المقهى وطلبت كوب شاي. هاهي روائح التبغ تصل إلى أنفي فتذكرني بالأيام الخوالي، وسهرات الخميس مع الرفاق، والأحلام التي كنا نطلق أعنتها فتسافر بنا إلى بلاد بعيدة فيها مستقبلٌ جديد، ولكن هذه الوجوه ... إنها غريبة، فذاك يبتسم ابتسامةً ساخرةً وهو يحدث زميله، وذلك العجوز يضع خرطوم النرجيلة في فمه وهو مغمض العينين، وكأنه تمثال نحت من الصخر، وهذا رجلٌ بدين ذو وجهٍ غير واضح المعالم، نظراته زائغة لا تكاد تستقر على شيءٍ، كأني أرى خوفاً كبيراً يرقص في عينيه، بل كأني أرى قلبه يكاد ينتفض مغادراً ضلوعه، لماذا؟ وما الذي حدث؟ ما لي أرى البؤس والخوف على الوجوه الكالحة التي تلتف من حولي، وهذا النادل أراه يبتسم لهذا وذاك، ولكن بين ابتساماته ألمح حزناً عميقاً جداً جداً. بعد قليل دخل المقهى رجلٌ قروي، كان واضحاً من شكله وسماته وملابسه بأنه قروي لم يغادر قريته منذ عقود، وقف عند الباب كالمذهول، وألقى على الجميع نظراتٍ ممزوجةٍ بالحيرة والدهشة، والخوف والخجل؛ نعم لقد استطعت أن أكشف عمّا في نفسه من نظراته وحركاته وكأني أقرأ كتاباً مفتوحاً. هل علمتني الغربة أن أقرأ الأفكار والوجوه والنظرات؟! كان الرجل القروي يفرك يديه بعصبية وتوتر واضحين، ثم مالبث أن أجهش بالبكاء، كان بكاؤه مسموعاً، ولكن الغريب والغريب جداً أن أحداً من الجالسين لم يعره أدنى التفاتة أو حتى كلف نفسه مشقة النظر إليه؟ لماذا؟ ما الذي يحدث؟ خرجت من المقهى على غير وعي مني، وكأني أهرب من متحف شمع تحركت تماثيله الشمعية فجأةً، وأخذت أسير بسرعة، ولم أدرك أني نسيت حقائبي في المقهى إلا بعد أن قطعت مسافةً طويلةً، وعدت أركض عائداً فيما كان الظلام يهبط على المدينة. وصلت المقهى وانا ألهث بشدة لفرط تعبي وعنائي؛ كان المقهى على حاله من السكون واللامبالاة كأنه خارج الزمن.

ـ أين الحقائب أيها النادل؟

ـ أية حقائب؟

ـ حقائبي التي نسيتها هنا قبل قليل.

ـ لم أرَ هنا أية حقائب.

ـ ولكنني كنت هنا قبل قليل وكنت أجلس....

ـ قلت لك لم نرَ أية حقائب، ثم إنك لم تقعد هنا هذا اليوم ... هيا انصرف.

جررت قدمي أضرب في الشوارع على غير هدى من أمري. السيارات تنطلق مسرعةً مسرعةً، والناس يمرون بي غير آبهين؛ ماهذه الوجوه المغبرة التي تطالعني؟ ... نساءٌ ورجالٌ وشبابٌ، وحتى الأطفال .... لماذا؟!

دخلت أخيراً إلى حديقة عامة بعد أن أنهكني المسير، اتخذت مجلسي في مكانٍ قريبٍ من الشارع، كنت بحاجةٍ إلى مخالطة الناس، إلى التحدث معهم، كنت بحاجةٍ لمن أعبر له عن فرحي بالعودة إلى مدينتي التي اشتقت لها والتي طالما شاهدت صورها في أحلامي، أجل... خمسة عشر عاماً لم تفارق فيها صورة هذه المدينة مخيلتي. لطالما جلست أنا وأصدقائي هناك في تلك البلاد الصاخبة المحمومة التي لا تهدأ أحدثهم عن مدينتي، عن ملاعب الطفولة ومرابع الذكريات، والحواري الدافئة التي احتضنت صباي ومراهقتي، وكنت أقول لهم بنشوة وأنا مغمض العينين منبسط الأسارير، وكأني أسافر عبر الذاكرة: ـ أنا من هناك... من مدينةٍ جميلةٍ وراء البحر... تقبلها الشمس عند الصباح والمساء، ويلفها الليل بحنو وعطف. الناس بسطاء متحابون... ولكنهم فقراء. في مدينتي يوجد أغنياء ولكنهم قليلون ولا نعرف عنهم الكثير.

لقد أحب رفاقي مدينتي دون أن يروها.

ـ ... سنزور مدينتك ذات يوم.

ـ لقد شوقتنا لرؤيتها يا رجل.

كنت أبتسم وأقول لنفسي: ـ (سأعود... سأعود يوماً ما، سأعود لأستنشق عبير أرضك أيتها المدينة المسافرة في ذاكرتي).

وهاقد عدت... ولكن ماذا وجدت؟ ... حتى الآن لم أجد هنا ما كنت أفتقده هناك!

أخذت أجول ببصري في أرجاء الحديقة بحثاً عن ضحكة طفل أو همسة تنطلق من ثغري عاشقين ألّف الحب بينهما، ولكني لا أرى سوى وجوه كالحة منعزلة، وأخرى صامتة، وأخرى ضائعة. أغمضت عيني واستغرقت في نوم مضطرب تملؤه الكوابيس والأحلام المخيفة، ثم فتحتهما فوجدت النور يغمرني وينتشر حولي. إنه الصباح أخيراً. لقد مرَّ الليل قاسياً طويلاً جداً؟! ربما كان الليل هنا أطول من ليل تلك البلاد. تنفست بعمق، ولكن رائحة الزهور التي كانت تملأ الحديقة لم تصل إلى أنفي. اقتربت من ثلاث زهرات بألوان مختلفة، انحنيت وشممتها بكل حواسي.

لا بد وأنني مصابٌ بالزكام، فليس للورود أي رائحة... نعم.. أنا مصاب بالزكام وحسب، يجب أن أجد دواء.

وخرجت إلى الشارع. دخلت صيدلية وطلبت دواءً للزكام. كان الصيدلي الأشيب يتحرك بحركةٍ آليةٍ، ناولني علبة الدواء وقال دون أن ينظر إلي: ـ استعمله متى كنت بحاجةٍ إليه.

دفعت له النقود فأحصاهم بسرعة، ثم التفت إلى زبونٍ آخر، وعدت مجدداً للشارع. الناس تسير على عجلةٍ من أمرها وعلى غير هدىً، وأبواق السيارات تزعق بغضب ونزق. سيارةً سوداء مسرعةً تدعس رجلاً كان يعبر الشارع؛ الناس الذين تجمعوا حول الجثة أخذوا ينقلون نظراتهم الشاردة البلهاء بين سائق السيارة الضخم ذي النظارة السوداء، وبين الرجل المسجى أرضاً من دون حراك! بعد دقائق تفرق الحشد وغادرت السيارة السوداء بهدوء، والرجل المسجى بقي مكانه والناس انصرفوا عنه. وقفت كالمشدوه أنظر إلى ما حولي.

ما الذي حدث؟! ماذا جرى؟

صرخت بأعلى صوتي: ـ إلى أين تذهبون؟ إلى أين تنصرفون؟ سيموت الرجل.

جاءني الجواب من رجلٍ عجوز كان يمر بجانبي وهو يتأبط رغيفاً وجريدة قديمة تحت ذراعه اليسرى؛ قال بصوت رنان:

ـ أتركه يموت بسلام فهذا أفضل له.

ـ ولكن يا عم؟!

ولكن العم انصرف بسرعة؛ أنى له هذا النشاط وهو في هذه السن المتقدمة؟!

وعدت أسير وأسير. هل هذه مدينتي التي حلمت بالعودة إليها؟ أم أن ذاك الحلم تحول إلى كابوس مخيف أشهد مجرياته بعيني؟! هل هذه المدينة التي قضيت أياماً طويلة وأنا أهيئ نفسي للرجوع إلى أحضانها الدافئة؟ وتلك الأحلام الجميلة التي كانت تعودني ليلاً .... هل كانت كذبة؟! لكن لماذا؟ ماذا حدث حتى تنقلب الامور بهذا الشكل؟ وأخيراً وبعد طول مسير وصلت إلى حارتي ومسقط رأسي؛ آه كم أنا سعيدٌ الآن، إنها حارتي التي لم تتغير منذ تركتها قبل خمسة عشر عاماً؛ دخلتها والابتسامة تكاد تغطي وجهي، وأخذت أبحث عن بيتي بعد أن اختلطت عليَّ بعض التفاصيل التي لم ألاحظها في البداية؛ بحثت طويلاً، ذرعت الحارة جيئةً وذهاباً طوال النهار وأنا أبحث عن منزل طفولتي، ولكنني لم أجده! أين هو؟ منذ خمسة عشر عاماً تركته هناك ... منتصف الحارة، ولكنني لم أعثر له الآن على أثر... أمعقول هذا؟! هل من المعقول ألا أعثر على منزلي بين البيوت المتشابهة

المتراصة؟ ماذا بقي لي سوى هذا البيت من أرث الماضي؟ هل يمكن أن يضيع هو أيضاً مع باقة الذكريات التي كنت أختزنها في ذاكرتي فأشم شذاها في كل حين؟

دكان الحلاق أبي محمود ما زالت في مكانها مذ رحلت، ولكن صاحبها نفسه غير موجود! وراء كرسي الحلاقة يقف شاب طويل القامة يضع العلكة في فمه، ابتسم لي ابتسامةً لم أستطع أن أحبها، ثم قال:

ـ تفضل يا أستاذ.

نظرت إليه طويلاً وهممت أن أسأله عن صاحب الدكان أبي محمود، ولكن لساني تجمد في حلقي، فتركته ومشيت وانا أروي في نفسي قصةً حزينةً:

ـ (قبل خمسة عشر عاماً كان في هذه الدكان رجلٌ عجوز يكنى بأبي محمود المزين؛ كان طيب القلب، حلو اللسان، حسن المعشر، وكان يبتسم للزبائن بل ويضحك في وجوههم وهو يروي لهم أمتع القصص والطرائف، ولكن ابتسامته اللطيفة تلك لا يمكنني مقارنتها على الإطلاق بضحكة ذلك الشاب المخنث).

آه.. ماذا بقي لي فيك أيتها المدينة؟ حتى بيتي سرقتيه، سرقتي ذكرياتي وأحلامي وآمالي.

مشيت بين الحواري الكثيرة المتداخلة حتى أضناني المسير، وإذا بي أدخل زقاقاً طويلاً ملتوياً مكتظٌ بالبشر، العيون تكاد تأكلني؛ إني لا أرى الوجوه، لا أرى سوى عيونٌ لامعةٌ ذكرتني بالقطط والكلاب المشردة التي كنت أراها في مدن الغربة، وضحكت من نفسي .... تلك مدن الغربة... وهذه المدينة الكئيبة، هل صارت هي أيضاً من مدن الغربة؟! وهؤلاء البشر الذين يطحنهم الخوف واليأس، هل أصبحوا جزءاً من هذه المدينة؟! مالهم يحدقون بي هكذا؟ ألأنني ألبس ملابس ثمينة تتميز عمّا يلبسونه، أم لأنني أتعطر بعطر فواح ذي رائحةٍ زكيةٍ، ولكن هذا العطر الشذي ضاعت رائحته في زحمة الروائح الكريهة التي تملأ الزقاق الطويل المنتن.

مشيت في الشارع وأنا أتلفت يمنةً ويسرةً. أطفال يلعبون لعبة الشرطي والحرامي، رجال بعضلاتٍ مفتولةٍ يسترخون في الشمس كجيفٍ نتنةٍ، أما النساء فكن يقفن على قارعة الطريق الضيق وهن يضعن على وجوههن الزينة بطريقةٍ مبتذلةٍ، وابتساماتٍ شيطانيةٍ شبقة ترتسم على وجوههن المتخفية تحت قناعٍ من الألوان والأصباغ. غادرت الزقاق على عجل وأصواتهن تطاردني وتدعونني لليلةٍ مجنونةٍ، وبعد أن صرت خارج الزقاق تنفست الصعداء.

أين أنت أيتها الليالي الطويلة التي ملأتك أحلام وآمال وانتظار؟

أين انت أيتها السهرات الجميلة التي كنت أقضيها بين أصدقائي هناك في مدينة الغربة وأنا أحدثهم عن ملعبي ومرتع أفراحي وأحلامي، عن مدينتي الجميلة الحنونة.

والآن إذا ما جاؤوا ذات يومٍ لزيارتي هنا كما وعدوني، ماذا سأقول لهم؟ وأين سأستقبلهم؟

هل أخبرهم بأنني كنت أكذب بكل ما حدثتهم به؟ أم أقول لهم بأن مدينتي التي حدثتهم عنها قد ضاعت، وضاعت معها ذكرياتي وتراثي؛ لا شك بأنهم سيضحكون ملئ أشداقهم، وسينظرون لي كمن ينظر إلى مجنونٍ فقد عقله، وعندها سأطرق رأسي خجلاً ... لا بد وأن أطرق رأسي خجلاً وأسفاً، وإن ألحوا بالسؤال فسأصمت حتماً ... وسيكون صمتي نهائياً.

إنتهت

ذكرى عابرة

كان متعباً جداً في ذلك المساء الصيفي الجميل، ضغوط العمل ومشاكله أرهقته كثيراً، ولم يصدق بأنه خرج من الشركة بعقل سليم.

وصل إلى المنزل. ألقى التحية على زوجته ولم يطلب طعاماً، إنما جلس أمام شاشة التلفاز حتى شعر بالسأم، فصعد إلى سطح المنزل. هذا المكان يحبه جداً، هذا البيت الذي ورثه عن أبيه، هذه الحارة الشعبية البسيطة، بل كل هذه المدينة.

قال له زميله في العمل ذات مرة: ـ ما بك يا سمير؟ إن أحوالك المادية قد تحسنت كثيراً في الآونة الاخيرة، فلم لا تبحث لنفسك عن منزلٍ جميلٍ في شارع محترم راقٍ؟

هز رأسه وقال: ـ يا صديقي ... لقد ولدت وعشت وتربيت في منزل أبي الصغير المتواضع، وفي شارعي البسيط، ولي فيه ذكرياتٍ جميلةٍ، ولن أتركه أبداً.

تنفس بعمق وهو يرقب المدينة من فوق سطح المنزل. أنوار المنازل تتلألأ في سفح جبل قاسيون، تاركتاً في نفسه أحاسيس عميقة، وذكرياتً عطرةً.

جلس إلى كرسيه، ثم فتح المذياع الصغير المتنقل الذي يحتفظ به منذ مراهقته، وأدار الموجة حتى استقر على إذاعته المفضلة، انبعث من المذياع نغمٌ جميلٌ ثم تبعته أغنيةٌ حزينةٌ. استند إلى الخلف وأغمض عينيه.

(ياالله ما أجمل هذه الأغنية، لقد مضت سنواتٌ طويلةٌ منذ سمعتها آخر مرة).

هذه الأغنية تعيد له أياماً مضت. يتجسد ذلك الزمان أمامه منبعثاً مع أنغام الأغنية. أيام الفتوة والمراهقة والأحلام الكثيرة البراقة التي كانت تراوده، ولم يدر كيف تقهقرت به الذاكرة إلى ما قبل عشرين عاماً؛ لقد حلقت به هذه الأغنية عالياً عالياً بسرعة لم يتصورها. إنه يذكر تلك الايام جيداً، بل ويحس بنكهتها اللذيذة ترتعش في فؤاده، وتنتشر حوله مع أنغام الأغنية المنبعثة من المذياع. كان آنذاك مراهقاً في السابعة عشر من عمره، حصل على الشهادة الإعدادية بتفوق، ثم التحق بالمدرسة الثانوية العامة. كان الحب آنذاك يمثل له شيئاً غامضاً، شيئاً مخيفاً ولذيذاً وهو في بداية الشباب. لقد أعلن تمرده منذ دخل المدرسة الثانوية، تمرد على نفسه وأصدقائه وأسرته، وكان يقول بصوت عالٍ: ـ لقد كبرت وصرت شاباً وأصبحت حراً في تصرفاتي واختياراتي، ولا أريد لأحد أن يملِ عليِّ ما يجب أن أفعله.

ثم وقع ما كان يسعى إليه ... المشاكل... مع أسرته وأخوته الذين يكبرونه، ثم مع أصدقاء المدرسة.

كان يرى نفسه مؤهلاً لكل شيء، وقادراً على كل شيء؛ الدراسة، العمل، المغامرة ... والحب، وأحياناً كثيرة كان يخوض مغامراتٍ وتجارب دون أن يستشير أحداً، وغالباً ما كان يفشل. ثم انتهت السنة الدراسية الأولى، وجاء الصيف يعده بأحلامٍ ومغامراتٍ كثيرةٍ، ولكن معسكر التدريب الصيفي كان مفاجأةً بالنسبة له.

ـ (لماذا هذا المعسكر؟! ... إن هذا شيءٌ تافه لا معنى له ...ألا تكفينا الدراسة؟).

غالباً ما كان يكرر هذا الكلام في الشارع، وفي البيت، وبين أصدقائه؛ ولما جاء وقت المعسكر في منتصف الصيف التحق به على كرهٍ من أمره وهو يتذكر كلام مدير المدرسة أثناء الاجتماعات الصباحية:

ـ (.... هذا المعسكر أيها الطلاب هامٌ جداً بالنسبة لكم، وعلى الجميع الالتحاق به، ومن يتخلف عنه سيحرم من متابعة الدراسة الثانوية في مدارس الدولة العامة).

وبدأ المعسكر. تجمع الطلاب من كافة المدارس الثانوية، شبابٌ وفتيات؛ وكان هو خجولاً بادئ الأمر، فهذا التجمع المختلط لم يعتده من قبل، ولكنه سرعان ما نسي خجله في غمرة العمل والمحاضرات والوقوف لفتراتٍ طويلةٍ تحت أشعة شمس الصيف اللاهبة، وكان حنقه يزداد يوماً بعد يومٍ، فيعلن احتجاجه بصمت:

ـ (مالي ومال هذه المحاضرات والتعب والتعرق والاحتراق تحت الشمس؟)

ولكن كان عليه أن يكمل. وفي إحدى المحاضرات، كان يجلس في القاعة على أحد المقاعد وقد شرد بفكره بعيداً غير مصغ إلى المحاضر وهو يتكلم، في تلك اللحظات التقت عيناه الشاردتان بعينيها الحزينتين، كانت نظرة سريعة وخاطفة، ولكنها كافية لتحرك شيئاً في داخله، اعتدل في جلسته ثم نظر إلى الجهة المقابلة لمقعده؛ كانت تجلس في مقعد يوازي مقعده من الطرف الآخر؛ عيناها كانتا قد استقرتا عليه في اللحظة التي نظر إليها، غض بصره كما هي عادته عندما تلتقي عيناه بعيني أي فتاة، وذلك يعود إلى خجله من الجنس الآخر والذي شب عليه منذ طفولته؛ ثم عاد يختلس النظر إليها بين الفينة والأخرى، فيجد بأنها ماتزال هي الأخرى تختلس النظر إليه مع ابتسامةٍ ترفرف على شفتيها.

يالاقوة هذه النظرات وتأثيرها؛ إنها نظراتٌ ساحرة من عينين سوداوين تخفيهما رموش طويلة. أحقاً تنظر إلي؟! إليَّ أنا!؟

وعاد يختلس النظر ليتأكد من أنه المقصود بتلك النظرات الساحرة. ثم انتهت المحاضرة الطويلة المملة، فخرج على عجلٍ يريد أن يستنشق بعض الهواء. أين ذهبت؟ بحثت عيناه عنها لكنه لم يجدها.

وفي اليوم التالي تبدل حاله كلياً، صار يحب المعسكر الصيفي، يحبه جداً، وأصبح يهتم بنفسه، يهتم بهندامه وقيافته. استيقظ باكراً جداً على غير عادته، وقد امتلأ بالنشاط والحيوية. قام فور استيقاظه بتلميع حذائه الأسود، ثم مشط شعره بعنايةٍ مبالغٍ فيها، وأخيراً أفرغ قارورة عطر أخيه على نفسه كأنه على موعد غرامي، ثم انطلق إلى المعسكر مصفراً لحناً مرحاً بين دهشة أهله. وصل إلى المعسكر وهو يمني النفس برؤياها، وشاهدها؛ كانت تقف مع صويحباتها، لقد رآها لأول مرة وهي تقف، نظر إلى قوامها الرشيق وشعرها الطويل، ثم استقرت نظرته على تلك الابتسامة الحزينة التي تشع في وجهها.

ـ (ما هذا الحزن الذي احتوته تلك الابتسامة؟ وتلك النظرات المطلة من عينيها، إنها تزيد من حزنها).

لم يكن في تلك اللحظة يتمنى أي شيء سوى أن يعرف ما في قلبها، وما ينطوي عليه من حزن وألم وحب.

ـ (أحقاً كانت تقصدني بتلك النظرات؟). سأل نفسه هذا السؤال كثيراً.

تلك النظرة والابتسامة الحزينة كانتا تحملان له معانٍ كثيرةٍ لم يستطيع فك رموزها، ولكن كان عليه أن يكلمها ويصارحها بكل شيء، بكل ما لديه، بكل ما يعتلج في نفسه التي كانت كبحيرة راكدة، ألقت فيها تلك النظرة حجراً كبيراً أحدث اضطراباً عنيفاً لم تشهده نفسه من قبل؛ وفي تلك اللحظة التي قرر فيها أن يكلمها، انتابته تلك الحالة التي كانت تنتابه عادةً، وهي الخجل وعدم الثقة بالنفس أمام الفتيات، كان حاله دائماً أنه يشعر بالنقص إذا ما قرر أن يكلم فتاة، يحس بنفسه تنفر من شكله ووسامته المتواضعة، ويجد لديه فقراً في الكلام، فيحس بأن قاموسه فارغ من عبارات الحب والغرام التي تعجب الفتيات، وحتى لو وجدت العبارت فلم توجد قط في نفسه الشجاعة على نطقها أمام أي فتاة؛ أجل لقد كان هذا حاله وديدنه دائماً، ولكنه يشعر الآن بأن قوةً جديدةً استقرت في فؤاده، وهي على وشك أن تدفع به للتحدث إلى الفتاة التي أسرت قلبه لأول مرة، وعندما قرر أن يكلمها ويصارحها، انتابته الهواجس، وأحس بالضعف والجبن معاً، ودارت في رأسه العديد من الأسئلة المحبطة، (ماذا لو كانت نظراتها تلك لا تعني أي شيء؟ مجرد نظراتٍ شاردةٍ استقرت على وجهي فأشعلت فؤادي، ماذا لو ازورت عني عندما أكلمها؟ ماذا ... وماذا ...وماذا...؟). وقرر أخيراً تأجيل ما اعتزم القيام به.

وفي الأيام التالية لقراره الجبان، عاش بين الرجاء والأمل، وبدأت أشعة الحب تملأ روحه وقلبه وكيانه، وصار يقضي نصف ليلته ساهراً فوق سطح المنزل، يستمع إلى أغاني الحب الرقيقة، فتحلق به عالياً وتأخذه إلى عوالم براقة وجذابة فيها الكثير من الحب والشوق، وكانت تلك الأغنية بما فيها من روعة اللحن وصدق الكلمات، أنيسته في كل ساعة، يرددها دائماً ويغنيها بإحساس عالٍ، ويلتهم كلماتها التهاماً، وكان يعجب من هذه الأغنية التي تحكي قصة حبه الخجولة، وتصف حاله وتكشف ما في قلبه، وكأن هذه الأغنية قد وجدت لأجله.

ومرت أيام المعسكر والأمل يزداد يوماً ويختفي يوماً آخراً. مرت عليه ليال لم يذق فيها طعم النوم، فقد كانت تلك النظرة ماتزال تلاحقه، لقد صارت نقشاً أبدياً في ذاكرته، كان يستمد منها القوة، ويعيش معها لحظاتٍ لذيذة يسترجع فيها تفاصيل اللحظة التي التقت فيها العينان، فتشب في قلبه نار السعادة، وتضطرم في نفسه عواطف سعيدة تأخذه بخياله إلى عالم جميل مملوءٌ بالحب والأمل؛ وفي اليوم التالي للياليه الوردية تتبدد تلك القوة والعزيمة اللتان تملكتانه. وأخيراً مات الأمل الذي كان متمسكاً به، وعاد قلبه مرتعاً للفراغ لليأس والإحباط، وصارت أيام المعسكر ثقيلةً لا يكاد يطيقها، وأصبح يتمنى أن تنتهي أيام المعسكر بسرعةٍ ليتخلص من ألمه ومعاناته.

اقتربت آخر أيام الصيف، وأوشكت أيام المعسكر الأخيرة أن تتصرم. كان يجلس وإلى جانبه أحد أصدقائه في باحة المعسكر. أخذ ينظر إلى الفتيات والفتيان وهم يتراكضون ويتضاحكون، ثم يسقطون على الأرض، وآخرون أخذوا يتراشقون بالمياه الباردة والضحكات السعيد تملأ وجوههم.

قال له صديقه: ـ مالنا يا صاحبي نجلس هكذا واجمين؟ هيا لنقم ونمرح كالآخرين، هيا لنشاركهم لعبهم وفرحهم.

ولكنه لم يستطع أن يفهم شيئاً مما قاله صاحبه الذي نهض مسرعاً ثم انضم للآخرين، بينما بقي هو في مجلسه يقلب نظراتٍ كسولة حوله، ووقعت عيناه فجأةً عليها، كانت تسير إلى جانب فتىً وسيمٍ يعرفه، أحس بالنار تكوي قلبه، وبآلام الدنيا تعوده، فصرخ مؤنباً نفسه: . ـ (تباً لي من أحمقٍ متخاذل، لماذا ترددت وأحجمت؟ لماذا تركت هذا الفتى يخطفها مني بعد أن أرسلت لي أشعة الحب مع نظراتها الحزينة، لقد كنت متقوقعاً على نفسي، خائفاً جباناً.... إنني عديم الثقة بالنفس إني...).

وقبل أن يتابع توبيخ نفسه الفائرة الحزينة، كانت قد اقتربت هي وصديقها الجديد من حيث يجلس هو، توقفا قليلاً بحذائه، تردد قليلاً ثم اختلس النظر إليها؛ كانت تبتسم ابتسامةٍ مشعةٍ وهي تدير ببصرها في أرجاء باحة المعسكر، وظلت نظراته معلقةً بها كمن ينظر إلى آلهة الجمال، وفجأة التفتت إليه، تلاقت عيناهما بضع ثوانٍ قبل أن يشيح بوجهه جانباً وقد عاد الخوف والخجل يتملكانه من جديد، وتسارعت ضربات قلبه الثمل وقال لنفسه:

ـ (ياالله.... إنها النظرة الحزينة نفسها خصتني بها من جديد).

وفي الليل كان ساهراً كعادته يتجرع مرارة هزائمه المتكررة، ويمضغ أحلامه بصمت، ويجتر الأماني والآمال؛ تلك النظرة الشفافة كانت تصرخ وتصيح به:

ـ (...تعال اقترب.... أنا أريدك... لما كل هذا الخوف والتردد؟ تعال .... تقدم خطوة فقط فأتقدم خطوتين.... امتلك ولو قليلاً من الجرأة فقط).

ودفن رأسه في الوسادة بينما كانت أغنيته الحزينة تنساب في الفضاء.

وانتهت أيام المعسكر. توقفت الرياضة والمحاضرات والاجتماعات وأوقات اللهو؛ وبدأ الطلاب يرقصون ويمرحون وقد أقاموا حلقات الدبكة في ساحة المعسكر؛ فالبعض كانوا سعداء، والبعض الآخرون انتابهم الحزن والكدر لانتهاء أيام المعسكر الجميلة، وأما هو فقد وصل إلى مرحلة متقدمة من الإحباط واليأس، فها هو الصيف قد انتهى وانتهت معه أيام المعسكر الذي استشعر فيها لذة الحب وعذابه وسهر الليالي الطويلة، وبعد قليل سيفترق كلٌ إلى مدرسته، وأخذ يسأل نفسه الحزينة: ـ (أين سأراها بعد الآن؟ أين تسكن؟ في أي مدرسة تدرس؟ أنا لا أعرف اسمها حتى الآن... لا أعرف عنها شيء سوى أنني .... أحببتها... أحببت رقتها وابتسامتها، ونظراتها الحزينة التي حيرتني وملأت قلبي بنور أمل جميل).

وبعد أن تم توزيع شهادات انتهاء المعسكر على جميع الطلاب، فُتحت الأبواب العالية، وتدافع الجميع بصخب للخروج من المعسكر الذي ضمهم لمدة شهر وأقام فيما بينهم صداقات جديدة.

أما هو فقد وقف عند الباب يراقب الخارجين، وكان كل همّه أن يحظى منها بنظرة أخيرة تكون زاد مشاعره في الأيام المقبلة. رآها أخيراً تخرج برفقة إحدى صديقاتها، وشعر بسرور مباغت اجتاح كيانه عندما لم ير ذلك الفتى بصحبتها. تلاقت عيناهما عند الباب، تلاقت لبضع ثوان أحسها كأنها دهر، وأحس بأن الزمن توقف عند تلك النظرات، ورأى في مقلتيها حزناً عميقاً، ثم ابتسامةٌ حزينةٌ طافت على شفتيها ذكرته بأول يومٍ رآها، وقبل أن يدير ظهره ويمشي، سمع صوت صديقتها تصيح بها:

ـ هيا يا شذى، لقد سبقتنا صفاء.

تنهد بألم ثم قال: ـ إذاً اسمها .... شذى.

كانت الأغنية قد انتهت، وأعلن المذيع عن فترة الأخبار، فقام واقفاً ونظر إلى الشارع نظرة طويلة، ثم تحول بنظره إلى ساعده الأيسر فوق المعصم، وقرأ اسم " شذى" موشوماً عليه.

إنتهت

بعد الفجر

انتهت صلاة الفجر، وبدأ المصلون يغادرون المسجد مثنىً وفراداً. الشيخ عبد الباري وبعد أن أنهى الورد الصباحي استعد لمغادرة المسجد أيضاً، ولكنه توقف عند الباب يحيط به نفرٌ من مريديه ومحبيه. قال الشيخ وهو يمسح بكفه على لحيته الشهباء الناعمة: ـ بارك الله بكم، وغفر لكم ذنوبكم، وجعل كل أعمالكم الصالحة في ميزان حسناتكم ... والآن عودوا إلى منازلكم، ولكني أرجو منك ألا تناموا قبل أن تقرأوا وردكم الصباحي حتى ترتفع الشمس في السماء، ويكون لكم بذلك أجرٌ عظيم إن شاء الله.

فقال الحاج مصطفى: ـ لك ذلك منّا يا شيخ، ولكنه هب أن أحدنا نام وهو يتلو وردّه، فماذا يفعل؟

فتبسم الشيخ وقال: ـ يُسخرُ الله عندئذ ملائكةً تتم عنه التسبيح والتهليل والحمد، ويكون كل ذلك في ميزان حسناته إن شاء الله.

وارتفعت همهمةً بين المتحلقين حول الشيخ الذي حث خطاه حتى صار خارج المسجد، ثم قال وهو يودع الجميع:
ـ السلام عليكم .... عودوا إلى منازلكم يرحمكم الله.

وتفرق الجميع في طرقات القرية كلٌ إلى منزله. كان صبري عبد الحميد يسير لوحده متلفعاً بعباءةٍ بنيةٍ خفيفةٍ تقيه من برودة الصباح الربيعي، وكان يمشي مطرقاً برأسه وقد شد العباءة على جسده المكتنز عندما أحس بلسعة بردٍ تقرصه. اتخذ الطريق الذي يلتف نصف التفافةٍ حول بساتين القرية قبل أن يصل إلى منزله؛ وكان عليه في هذه الحالة أن يمشي لمسافة ميل تقريباً بمحاذاة الأشجار والبساتين، وكانت هذه النزهة المبكرة أحب شيئاً إلى قلبه؛ ولما بلغ منطقة البساتين شعر ببرودةٍ أشد، ولفحته رائحة النداوة الصباحية المنعشة المفعمة برائحة العشب الطري، وأوراق الأزهار المثقلة بحبات الندى، وأحس بالحياة تدبُّ في رئتيه من جديد، فعبَّ من هواء الصباح النقي، ثم رفع رأسه نحو الشرق، ليشاهد أول تباشير الصباح توشك أن تظهر متمثلةً بخطٍ شديد الإحمرار يظلل المرتفعات الداكنة القريبة التي تنتشر عليها بعض الأحراش التي يخفيها غبش الصباح.

سار وهو يحس بالمتعة والراحة، وتمنى لهذه النزهة الصباحية أن تطول أكثر، ولكنه تذكر فجأةً كلام الشيخ، عن الوِردّ الصباحي، وعن الأجر العظيم الذي سيصيبه، فتمتم معاتباً نفسه: ـ (كدت أنسى هذا.. لا حول ولا قوة إلا بالله). وحث خطاه مسرعاً فوق العشب المبلل.

ولما وصل المنزل، فتح الباب الخارجي ثم دخل. لم تكن ثمة حركة في المنزل. فتح غرفة الأولاد، فشاهدهم جميعاً وهم نيام، ثم دخل غرفته ليجد زوجه تغط في النوم وإلى جانبها لباس الصلاة، فأيقن بأنها صلت الفجر ثم نامت.

خلع العباءة الخفيفة وعلقها على المشجب وظل بالجلابية، ثم جلس متربعاً مسنداً ظهره إلى الجدار، وبيده سبحته يقرأ بها وِردّه الصباحي.

إن صبري عبد الحميد، رجلٌ في أواخر العقد الخامس من عمره، متوسط الطول، ممتلئ الجسم والوجه، يملك دكاناً صغيراً قريباً من منزله يعيل من وراءه زوجته وبناته الست؛ وهو رجل مسالم يكره المشاكل، ولكنه وبحكم عمله، فقد كان كثير الكلام والثرثرة والجدال واللغو، وكثيراً ما وقع في خصوماتٍ كثيرةٍ مع بعض أصدقائه بسبب حدة لسانه، ولكنه مع كل ذلك يمتلك قلباً متسامحاً وعطوفاً ورقيقاً كقلوب الأطفال. التحق منذ خمسة أعوام بحلقة الشيخ عبد الباري، وكان قبل ذلك يغتابه ويشتمه ويسخر منه أمام زبائن الدكان، ولا يعتقد فيه الخير، وكثيراً ما خرجت من أمام دكانه ـ حيث تعقد الجلسات ـ أشد التندرات والتعليقات على الشيخ عبد الباري؛ على أسلوب حياته وطريقته في المشي، وقراءة القرآن في الصلاة، وكان صبري هو صاحب معظم تلك التعليقات. كان ذلك قبل أكثر من خمس سنوات، وبعد ذلك بفترةٍ حدث تحولٌ كبيرٌ في حياة صبري، جعله يمسك لسانه عن السخرية من الشيخ عبد الباري، بل صار من المنافحين والمدافعين عنه، ثم فجأةً صار من مريديه ومرتادي حلقته، وأضحى خلال فترةٍ قصيرةٍ من أكثر المقربين من الشيخ، ونظراً لذكائه وسرعة بديهته وقدرته على الحفظ السريع، فقد عمل على حفظ القرآن والحديث، وخلال فترةٍ قصيرةٍ قياسيةٍ، كان قد حفظ ثلث القرآن مع التجويد، وكتاب الأربعين النووية، إضافةً إلى الكثير من الأحكام الفقهية المتعلقة بالفرائض، والطهارات والنجاسات وغيرها، فازداد قربه من الشيخ، وفتح الله عليه في تجارته أكثر، ثم تزوجت كبرى بناته، وبعدها بشهرين تزوجت أختها التي تليها، وبعد أقل من عامٍ تزوجت الثالثة. وارتاح قلب صبري من أكبر همٍّ كان يقض مضجعه، فركز اهتماماً أكبر في عباداته وأوراده وحفظه.

تنهد وهو مستندٌ إلى الجدار وبين أصابعه السبحة ذات المائة حبة، يجري إبهامه فوق حباتها، وشفتاه لا تكادان تستقران، وعيناه نصف مغمضتين. كان يحس بالراحة تشمله كله وهو يهلل ويسبح ويكبر ويستغفر، نعم هذه الراحة صار يستشعرها كثيراً في الآونة الأخيرة، وخصوصاً بعد صلاة الفجر.

أحس بالنعاس والخدر يدبان في جسده دبيباً لذيذاً، فينتقل بسرعةٍ وسلاسةٍ إلى عينيه، فيشدُّ جفنيه للأسفل ليكمل الإغماض، ولكنه كان يأبى الاستسلام لسطوة النوم، فيفتح كلتا عينيه بقوةٍ ويتنهد بعمقٍ، ويرفع صوته قليلاً بالتسبيح والذكر حتى لا يأسره سلطان النوم، ولكن الخدر اللذيذ ما يلبث أن يعاود تغزله بعينيه، فيبدأ من جديد بسريانه الكهربائي؛ وأخيراً استطاع النعاس أن يسبل جفنيه، ولكن من دون أن تسقط السبحة من يديه، بل بقيت بين أصابعه دون أن يجري إبهامه فوق حباتها. سمع فجأةً وهو بين النائم والمستيقظ قرقعة المئذنة، ثم صوت المؤذن العميق يرتفع تدريجياً. لم يفتح عينيه فقد كان يستشعر لذة تلك المسافة التي تفصل بين النوم واليقظة،

وترك لأذنيه مهمة سماع صوت أبي نسيب الذي أخذ يرتفع وهو يشق هدوء الصباح؛ كان صوته عميقاً حزيناً كأنه قادمٌ من أعماق بئر مهجورة: **(إنَّ لله وإنَّ إليه راجعون ...... كل نفسٍ ذائقة الموت ....)**

وأيقن على الفور، بأن أبو نسيب سينعو أحدهم.

(انتقل إلى رحمته تعالى المرحوم ... صالح عثمان ... سيتم تشييع الجنازة بعد صلاة الظهر .... ترحموا عليه يرحمه الله ...)

انتفض من غفوته مذعوراً، وفتح عينيه بسرعةٍ ونظر حوله. كانت الشمس قد اخترقت زجاج النافذة المطلة على الشارع، وملأت الغرفة بضياء الصباح الوليد، ثم نظر إلى الجدار المقابل حيث ساعة الحائط معلقةً، كانت تشير إلى الثامنة، فقال لنفسه: ـ (لقد غفوت كثيراً).

كانت زوجته ما تزال تغط في النوم، فعاد يقول لنفسه: (هل حقاً لم تسمع صوت أبي نسيب وهو ينعو صالح عثمان بالرغم من أنها خفيفة النوم؟!).

وزفر بحسرةٍ ثم تمتم بصوتٍ كالهمس: ـ إيه.. يرحمك الله يا صالح ... ولكن متى وكيف؟! إنه على ما أعتقد لا يشكو من أي مرض، وصحته جيدة، وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره ... إيه ... ماذا أقول؟ .... إنه الأجل.

وعاد يستند إلى الجدار. كان ما يزال يشعر بالنعاس يدغدغه، وانتبه إلى السبحة بيده، فوضعها في جيب الجلابية ثم أغمض عينيه، واضجع على شِقه الأيمن، وأسلم نفسه للنوم، وما أن دخل في ملكوته حتى رأى نفسه يقف وسط ساحة القرية عند الظهيرة، ورأى بعد قليلٍ حشدٌ كبيرٌ من الناس يرفعون نعشاً ويتقدمون به من أول الطريق الذي يفضي إلى الساحة. كانت الجنازة صامتةً. الجميع مطرقون برؤوسهم، وحَمَلَةُ النعش يسيرون بخفةٍ وسرعةٍ؛ وشاهد شقيق صالح يمشي في مقدمة الجنازة وهو يكفكف دموعه الغزيرة ويقول: ـ وداعاً يا أخي.

مسح بكفيه على وجهه وهو يشعر بالرهبة والوحشة لمشاهدته الجنازة الصامتة تتجاوزه صعوداً نحو المقبرة التي تربض فوق تلٍ رحبٍ يتم الصعود إليه بطريق ترابي متعرج يبدأ من الساحة. أخذ يحوقل ويبسمل وهو يشيع الجنازة بنظره، ثم تمتم بأسىً: ـ يرحمك الله يا صالح.

وقعد على حجرٍ صغيرٍ ووضع خديه بين كفيه، ونظر حوله حيث الساحة الخالية تماماً تعلن عن جو من الكآبة والخوف، ثم قام واقفاً بعد هنيهةٍ فوجد نفسه يقف في وسط المدينة عند مدخل مستشفىً كبيرٍ، وبيده كيساً أسود فيه علبة حلوى. كان الوقت صباحاً، والسماء شاحبة. صعد السلالم العريضة على مهلٍ وهو يحدث نفسه:

ـ (سيعتب عليَّ صالح كثيراً ... لقد تم إسعافه إلى هنا منذ الفجر، وحتى الآن لم آت لزيارته .... آه ... ماذا سأقول له؟ ... سيقبل صالح عذري على كل حال، فهو يحبني كثيراً).

وبلغ مدخل المستشفى الكبير، ثم دخل البهو الواسع. كان المكان مزدحماً، والناس يروحون ويجيئون على غير هدىً. سأل موظف الاستقبال عن الغرفة رقم سبعة، فدله على الطابق الأول الذي يُصعد إليه بسلمٍ إلى يمين الاستقبال، وكان السلم عريضاً حلزونياً وجد مشقةً في صعوده، ولما احتواه الطابق الأول توقف لحظاتٍ ليشاهد البهو من أعلى السلم وهو يلتقط أنفاسه، وكان باستطاعته أن يشاهد مدخل المستشفى والناس الذين يدخلون ويخرجون؛ ثم سار في الممر الطويل الضيق شبه المعتم حيث تقوم الغرف على الجانبين. بحث عن الغرفة رقم سبعة ووجدها على الفور، وقف عند الباب ونظر إلى داخل الغرفة، كانت كبيرةً جداً فيها صفان متقابلان من الأسرّة، وكان النزلاء المرضى يقبعون على أسرتهم صامتين كأنهم ينتظرون شيئاً ما. ابتسم صبري لهم، ثم قال بصوتٍ مرتفعٍ يُسمعُ الجميع: ـ صباح الخير ..... هل صالح عثمان هنا؟

قال جملته وعيناه تبحثان عن صالح عثمان بين الوجوه الكالحة، بينما نظر الجميع إلى بعضهم باستنكار، ثم تحولت العيون إلى أقصى الغرفة حيث يوجد سريرٌ فارغُ مرتب. أدرك الأمر على الفور، وقبل أن يقره في نفسه، صاح أحد المرضى بصوتٍ يشبه العويل: ـ لقد مات صاحبك منذ أسبوعٍ ..... عند الضحى.

أطرق برأسه وهو يشعر بالحزن يكوي قلبه، وبالدهش يسيطر على تفكيره، وسقطت علبة الحلوى عند الباب، فتركها وعاد أدراجه باتجاه السلم الذي يهبط إلى البهو، وهو يفكر متسائلاً: ـ (ترى ... كيف مات صالحٌ منذ أسبوع وقد تم إسعافه إلى هنا فجراً؟!).

ووقف عند أول درجةٍ على السلم، ثم نظر إلى الأسفل، إلى المدخل الرئيس، وشاهد على الفور الحاج" نايف عثمان" والد صالح وهو يدخل إلى المشفى يتكئ على عصاه ويمشي بصعوبةٍ، انقبض قلبه بعنفٍ وقال لنفسه:

ـ (ما الذي جاء بالعجوز الآن؟ .... يا ألهي ... سيموت حزناً وكمداً إذا علم بموت ابنه).

وعاد مسرعاً إلى الغرفة رقم سبعة.

ـ أرجوكم يا جماعة ... لقد جاء أبو صالح ليطمئن على ابنه ...أرجوكم لا تخبروه بأن صالح قد مات.... سيموت الرجل من الحزن.

ـ وماذا نقول له يا هذا؟ .... تساءل أحد المرضى بصوت متعب.

ـ قولوا له أن ابنه نزل للمخبر لإجراء بعض التحاليل الهامة والضرورية.

ـ سنقول له ذلك.

وكأنما انشقت الأرض عن أبي صالح فجأةً، وقال بصوت لاهثٍ متعبً:

ـ إيه يا بني يا صبري ... أنت هنا! ... هل جئت لتطمئن على صالح؟ ... إنه يحبك كثيراً.

ـ أ .... نعم يا عمي أبو صالح.

ـ وأين صالح؟ هل هو بخير؟

ـ لا تقلق يا عمي .... إنه بخير.

دخل أبو صالح عنبر المرضى وهو يجر قدميه، توقف بين الأسّرة ورفع كفيه إلى السماء وقال داعياً بصوتٍ ممطوط: ـ شفاكم الله وعافاكم، وردكم إلى أهليكم سالمين، وردَّ عليَّ ابني سالماً معافى ... أين صالح إني لا أراه بينكم؟

قال أحد المرضى بصوت مضطرب: ـ هو بخير يا أبا صالح، لقد نزل للمخبر لإجراء بعض التحاليل الهامة.

ـ نعم نعم ... التحاليل ضرورية لحالته ... طبعاً طبعاً.

كان يسمع الحوار بين العجوز والمرضى وقلبه منقبض، ثم خرج مع أبي صالح من الغرفة، ولما صارا في الممشى شرعا يتمشيان إلى آخره على عكس الاتجاه الذي أتيا منه، وقال أبو صالح وهو يمشي مستنداً إلى ذراعه:

ـ ماذا أقول يا بني؟ ... كان صالح شفاه الله يجلس بين أولاده يتعشى ويضحك، كانت صحته جيدة، وكان يبدو مثل حصانٍ مقبلٍ على الحياة، ولكن الله قدّر ... آه.. قضاء الله وقدره عاجله فأسقطه على الارض دون حراك، والأطباء قالوا لنا بأنها أزمة قلبية، ولكنها ستمر على خير.

تنهد بعد سماعه كلام أبي صالح وهو يحبس ألماً في داخله، وقال في نفسه: ـ (مسكين هذا الرجل، ماذا لو علم أن ابنه قد فارق الحياة عند الضحى؟ ماذا سيكون حاله لو علم ... لا لا.. لا يجب أن يعلم بذلك إلا بعد أسبوع من الدفن، سيموت بلا شكٍ من القهر والحزن).

وفي هذه اللحظة سمع صوتاً حاداً متوسلاً يصيح: ـ يا بني يا بني ... ساعدني أرجوك.

التفت خلفه ليجد عجوزاً بادي النحول، مصفر الوجه، أصلع الرأس، يجلس على كرسيٍ متحرك قرب باب الغرفة رقم ثمانية. توقف ملبياً النداء، وتقدم من العجوز ذو النظرات الغائمة المعلقة في الفضاء.

ـ أرجوك ... أرجوك ساعدني يا بني.

ـ ما بك يا عم؟

ـ أ ... يا بني.. الأطباء يقومون بجولتهم الصباحية بين المرضى، ولا أريدهم أن يرونني على هذا الحال ... أرجوك ساعدني.

ـ سأساعدك يا عم .... ولكن ما بك؟

وبدا الحياء والخجل على وجه العجوز النحيل، ولكنه قال بنبراتٍ رصينةٍ: ـ كما ترى ... أنا رجلٌ مقعدٌ، والخروج للخلاء يسبب لي مشاكل كثيرةً، وقبل قليل لم أجد من يساعدني، ولم أستطع أن أمنع الأمر ... فحصل ما حصل وأصابني الأذى ... و ... الأطباء قادمون وسيرون هذه الفضيحة.

وفي هذه اللحظة شاهد ثلاثة أطباء مقبلون من آخر الممر، فأصابه الذعر وتجلى هذا الذعر أيضاً على وجه العجوز الشاحب المستغيث، فأسرع يدخل إحدى الغرف ويلتقط شرشفاً من على أحد الأسرّة الفارغة، ثم عاد للخارج وألقى بالشرشف على العجوز، ثم لفه بعنايةٍ حتى لم يعد يرى من العجوز إلا رأسه الصغير، ونظر الأخير إليه نظرة امتنان وقال: ـ ستر الله عليك كما سترتني، وفرج ضيقك وكربك في الدنيا والأخرة.

فقال وهو يشعر بقلقٍ خفي: ـ لا تخف يا عم، يعد أن تنهي جولة الأطباء سأقوم بتنظيفك ... أعدك بذلك وعد شرفٍ.

وارتفع صوت العجوز بالدعاء طويلاً مبحوحاً: ـ ستر الله عليك يا بني ... ستر الله عليك.

ولكنه كان قلقاً من أن يصل الأطباء إلى أبي صالح ويخبروه بموت ابنه فأسرع لملاقاتهم، ووجد نفسه معهم في إحدى غرف العمليات شبه المعتمة، وكانت الأجهزة الطبية الكثيرة تصدر أصواتاً متداخلة لا تنقطع.

ـ أرجوكم يا سادة ... لا تخبروا أبا صالح أن ابنه مات ... سيجن الرجل.

وقال أكبر الأطباء سناً وهو منحنٍ فوق مريضٍ يبدو أنه يحتضر: ـ لا تقلق لن نخبره.

ودخل أبو صالح الغرفة في هذه اللحظة، كان يمشي بنشاطٍ ومن دون عكازه، قال على الفور يسأل الأطباء الثلاثة: ـ كيف حال ابني صالح، هل هو بخير؟

فقال الطبيب الأكبر سناً بلا اكتراث وهو ما زال على انحنائه: ـ ابنك بخير، سنجري له العملية بعد ساعتين، فلا تغادر المستشفى قبل أن تستلم ثيابه.

ـ هل هي متسخةٌ؟

ـ نعم، ونحن بحاجة لثيابٍ جديدةٍ، وبعض الأدوية من خارج المستشفى.

فالتفت أبو صالح إلى صبري وقال برجاء: ـ هل تبقى بالقرب من صالح يا بني ريثما أحضر الملابس والدواء.

فأومأ صبري برأسه موافقاً، وقال في نفسه التي استبد بها فرحٌ ضاغٍ:

ـ (يبدو أن صالح لم يمت، وهو بحاجةٍ لعمليةٍ سريعةٍ .... إيه ... لقد تعجل أبو نسيب بنعيه).

وطرق أذنه صوت أبي صالح يقول: ـ آه يا ولدي ... ماذا حل بك؟ ... هل أنت حيٌ أم ميتٌ؟

فتمتم بخوفً: ـ يبدو أن العجوز يشك بموت ابنه.

وأسرع راكضاً نحو السلالم المؤدية للبهو وهو يحدث نفسه المضطربة: ـ (سيأتي الآن أقارب صالح لأخذ جثمانه، وعندها سيعلم العجوز بموت ابنه).

وأسرع يهبط السلالم حتى صار في البهو، وشاهد على الفور نفراً من آل العثمان يدخلون المستشفى يكسو وجوههم الوجوم، فقال له أحدهم: ـ هل رأيت أبا صالح؟

ـ نعم .... لماذا.

ـ جئنا نصحبه للقرية، يجب أن يحضر الدفن.

ـ ولكنه لا يعلم بموت ولده.

ـ يجب أن يعلم في النهاية، فالجثة التي في المنزل لا تحتمل الانتظار.

ـ أجل أجل.... ولكن متى أخرجتم الجثة من المستشفى؟

ـ البارحة.

وتردد صدى الكلمة في أذن صبري عدة مرات، قبل أن يفتح عينيه بسرعةٍ وقوةٍ.

ـ يا ألهي ... أين أنا ... آه ... لقد كان ذلك حلماً.

ونظر مجدداً إلى الساعة المعلقة على الحائط، لقد تجاوزت الساعة الثامنة بقليل.

نهض متثاقلاً وتجاوز زوجته النائمة، ثم ذهب للمغسلة ليغسل وجهه وهو يحس بانقباضٍ في داخله، وتساءل: (هل كان هذا حلماً؟ ..... الجنازة والمستشفى وصوت أبي نسيب ينعو صالح .... هل كان كل ذلك حلماً؟! يا ألهي ... ولكن لماذا صالح؟!).

غادر المنزل بعد قليلٍ باتجاه الدكان التي تبعد عن منزله عدة أمتار. كانت الدكان تقع على الشارع العام الذي يقسم القرية إلى نصفين، وعند باب الدكان كان يجلس أبو نجيب وأبو ذياب بانتظاره وهما يتبادلان حديثاً عميقاً، وقال أبو ذياب عندما رآه: ـ إيه يا أبا ماجد، الراحة تفسد الإنسان.

ضحك أبو نجيب وقال معلقاً: ـ نعم، فها هي الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف وصاحبنا ما تزال آثار النعاس بادية على وجهه.

ثم قال موجهاً حديثه إلى صبري: ـ ألم تقل أنت نفسك يا أبا ماجد أن الأرزاق تقسم على العباد في البكور؟

ولكن صبري كان في عالمٍ آخر عندما وصل الدكان، كان الانقباض الذي يحس به ما يزال يعصره ويسيطر على مشاعره، وبدا للرجلين أن صبري لم يكن طبيعياً.

ـ ما بك يا رجل؟ لم أنت شاحبٌ هكذا؟ تساءل أبو ذياب.

فعقب أبو نجيب قائلاً: ـ أجل.. كأنك مريض.

ـ أنا بخير. قالها صبري بترددٍ وشرودٍ، ثم جلس على المصطبة، فقال أبو ذياب: ـ ألن تفتح الدكان؟

ونظر صبري إلى أبي ذياب بعينين ساهمتين، فقال أبو نجيب: ـ ربما لا يريد أن يسقينا الشاي.

فتنهد صبري وقال بضيق: ـ هل مات أحدهم اليوم؟

نظر الرجلين إلى بعضهما بدهشةٍ، فقال أبو ذياب: ـ لم تسأل؟

وعاد صبري يكرر سؤاله من جديد: ـ هل سمعتم صوت مكبر المئذنة ينعو موت أحد، أرجوكما أجيبا.

فأجاب أبو نجيب: ـ ما بك يا رجل، يبدو أنك استيقظت لتوك من النوم، وها أنت تسألنا إن كنا قد سمعنا صوت مكبر المئذنة ينعو أحداً، ونحن مستيقظان منذ الفجر ولم نسمع أي شيء، فهل سمعت أنت شيئاً من عالمٍ آخرٍ؟

قهقه أبو ذياب وقال ساخراً: ـ ربما الجماعة أخبروه .... أعوذ بالله ... أعوذ بالله.

فطفق أبو نجيب يضحك بدوره، ثم ضرب بباطن كفه على فخذ صبري وهو يقول: ـ هيا قم وحضّر الشاي ولا تكن بخيلاً.

ولم يحتمل صبري أكثر من ذلك فانفجر يصيح بغضب: ـ ما بكما؟ ... أقول لكما أن أحداً قد مات اليوم وأنتما تسخران مني.

فبدت الدهشة على وجه الرجلين اللذين أخذا ينظران إليه باستنكار، وتابع صبري يقول: ـ .... لقد مات صالح عثمان ... نعم.. سمعت النداء على تشييع جنازته بعد الظهر بأذني.

فصاح أبو ذياب باحتجاج: ـ أصمت وكفاك هذياناً ... ما بك يا رجل.. هل جننت؟ صالح عثمان لم يمت، لقد شاهدته عشية البارحة يمشي مثل حصان، ونحن مستيقظان منذ الفجر ولم نسمع شيئاً أو أحداً ينعوه، فمن أين جئت بهذا الكلام؟ هل كنت تحلم؟!

ورنت كلمة حصان في أذن صبري رنيناً موحشاً ازداد له انقباض قلبه، فقال بتسليم: ـ نعم .... لقد حلمت به.

قال أبو نجيب برفق: ـ إذاً اذهب واغسل وجهك، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وفي هذه اللحظة بالذات شاهد الثلاثة " نايف الحسون" يقطع الطريق العام باتجاه منزله وهو يدخن، فناداه أبو ذياب: ـ هيه ... يا نايف تعال بسرعة.

كان نايف شاباً في العشرين من عمره، ولما وصل إلى حيث يجلس الرجال الثلاثة، أطفأ سيجارته ثم قال متسائلاً بعد أن القى التحية: ـ خير يا جماعة... ما الأمر؟

فنظر إليه صبري باستنكار، بينما قال أبو نجيب يسأله: ـ كيف حال خالك صالح عثمان؟

نظر نايف بوجوه الجميع بدهشةٍ وقال متسائلاً: ـ كيف علمتم بالأمر؟! لقد حدث ذلك بعد الفجر، ونحن لم نخبر أحداً

فنظر أبو ذياب إلى أبي نجيب بفمٍ مفتوحٍ، فتابع نايف يقول: ـ كان طبيعياً جداً ليلة البارحة، تناول وجبة العشاء وسط ضحك أسرته، وبعد الفجر شعر بألمٍ حادٍ في صدره، فاستيقظ الجميع في البيت على صوت أنينه المكتوم، وقاموا على الفور بإسعافه إلى مستشفى المدينة.

قال أبو ذياب: ـ وكيف حاله الآن؟

أجاب نايف: ـ لقد اتصلنا بالمستشفى منذ نصف ساعة، وأخبرونا أنه بخير وأنه تجاوز الأزمة .... قد يخرج هذا اليوم من المستشفى.

وكان صبري يستمع إلى الحوار بصمتٍ تامٍ، وعندما وصل نايف إلى ختام روايته، سأله صبري: ـ ومن عنده في المستشفى الآن.

ـ زوجته.. وخالي كريم، وقد ذهب جدي أبو صالح منذ ساعةٍ ليطمئن عليه في المستشفى.

وسكت نايف قليلاً ثم قال متسائلاً: ـ ولكن ... كيف علمتم بالأمر؟

ولم يجب أحد على الفور، ثم قال أبو ذياب بعد برهةٍ: ـ لقد علمنا وحسب.

وغادر نايف المكان، وخيم الصمت على الثلاثة وهم يتبادلون النظرات، وبعد قليل أخذ صبري يقول كأنه يحدث نفسه: ـ سيموت صالح .... سيموت صالح، وستسمعون نعيه بآذانكم.

حاول الرجلان أن يخرجاه مما هو فيه، ولكنه ظل منقبض الفؤاد متجهم الوجه لا يفارقه الضيق الذي أخذ يشعر به منذ الصباح، وظل الثلاثة يتبادلون الحديث حتى ارتفعت الشمس في السماء. قبيل الظهر قرقعت المئذنة، فشنف الثلاثة آذانهم بلهفة، وكان التوتر قد أخذ بقلب صبري الذي بدأ يخفق بقوةٍ وعنفٍ، بينما ارتفع صوت أبو نسيب العميق يشق هدوء القرية: **(..... إنَّ لله وإنَّ إليه راجعون .... كل نفسٍ ذائقة الموت .... انتقل إلى رحمته تعالى .... المرحوم صالح عثمان ..... سيتم تشييع الجنازة بعد صلاة الظهر .... ترحموا عليه يرحمه الله).**

إنتهت

رزقٌ من السماء

لم تعرف قرية " الميداني" رجلاً أشد بؤساً وأتعس حظاً من " مروان درويش"، فقد ماتت أمه وهي تلده، وبعد عامين توفي والده بعد أن سقط من فوق جدارٍ كان يقوم ببنائه، وكفله خاله الوحيد " عبد الجبار" وضمه إلى أسرته الكبيرة، فرباه ورعاه كأي فردٍ في الاسرة، ولما كبر أرسله مع بقية الأولاد إلى المدرسة، ولكن مروان كان بطيء الفهم قليل الإستيعاب، وجد المدّرسون صعوبةً كبيرةً في تعليمه، فترك المدرسة قبل أن يتم المرحلة الإعدادية، وأمام إصراره وافق خاله على أن يزج به في معترك الحياة، فتوسط له عند معارفه ليقبلوه عندهم يتعلم حرفةً تبعد عنه غوائل الأيام القاسية وشبح الفقر، وعمل مروان، ولكنه فشل في أن يتعلم أية حرفة، فقد كان سريع السأم كثير الشرود، ضيق الأخلاق، وعصبي المزاج، وعلى هذا تنقل في أكثر من حرفة دون أن يفلح في أيٍ منها، ومما زاد الطين بلةً أنه تعلم التدخين وعاشر رفاق السوء الذين جروه إلى سهراتهم الماجنة وهو ما يزال في أول حياته ونشوة شبابه، ونتيجةً لذلك تسبب لخاله الطيب بمشاكل كثيرةً كانت تأكل من سمعته العطرة، وبَرِم به خاله وضاق صدره واحتار في أمره، فهو الوحيد الباقي من أسرته ومن العار تركه وحيداً لأنياب الدهر تنهش في لحمه الضعيف. وفي ذات مساءٍ استطاع عبد الجبار بعد جهدٍ جهيد أن يقنع ابن أخته بأن يتعلم قيادة السيارة، فربما تنجح معه هذه المرة، وقَبِلَ مروان طلب خاله بعد أن استطاع الأخير أن يفهمه بأنه في المستقبل القريب سيبلغ مبلغ الرجال، ويجب عليه أن يتزوج وأن يصبح رب أسرة، وهذا بدوره يحتاج للمال.

وبعد شهر تعلم مروان القيادة، وبعد شهرين آخرين نال شهادة قيادة، ثم استطاع خاله أن يقنع أحد رفاقه بأن مروان سائقٌ ماهرٌ، وتوسط لديه ليسمح لمروان بأن يعمل سائقاً على إحدى سياراته، وخجل الرجل من عبد الجبار ووعده خيراً وهو يتوجس خيفةً من مروان الذي عُرِف في القرية بالإنحلال ومعاشرة رفاق السوء.

وعمل مروان سائقاً لسيارة أجرة، وأبدى نشاطاً في الأيام الأولى جعلت صاحب السيارة يتفاءل بالخير، ولكن الرياح لا تجري دائماً كما يتمنى البحارة، فقد وقع لمروان حادثٌ أثناء التفافه على أحد المنعطفات الخطيرة، حيث طارت السيارة في الفضاء، ثم قبعت على الأرض كورقةٍ منكمشةٍ على نفسها، وعلى الرغم من سوء الحظ الذي يلازم مروان إلا أن العناية الألهية جعلته يخرج من الحادث ببعض الكدمات والكسور الخفيفة، وسارع خاله كالعادة إلى إصلاح الوضع مع صاحب السيارة، بدفعه نصف تكاليف الإصلاح.

وبعد أن شفي مروان من جراحه، وجد له خاله عملاً في مصنع الأدوات الكهربائية القريب من القرية، وكان تعيينه كحارس ليلي في المعمل، يبدأ دوامه عند المساء وقت انصراف العمال، وينتهي عند بدء الدوام في باكر اليوم التالي. ارتاح مروان لهذا العمل الذي لا يتطلب منه أي جهدٍ يذكر، سيما وأن مروان كان يحب السهر كثيراً، ومعتاداً عليه، ولكن ما لبث في عمله الجديد شهرين حتى سطا على المعمل بضع لصوص، قاموا بضرب مروان على رأسه بهراوةٍ غليظةٍ، ثم قاموا بتقييده وتكميمه، وسرقوا ما وقعت أيديهم عليه من الأدوات الكهربائية الثمينة.

وفي الأيام التالية لحادثة السرقة فُتح تحقيق مطول، وتم استجواب مروان أكثر من مرة، ووجهت إليه أصابع الاتهام بطبيعة الحال في أنه متواطئ مع اللصوص، ولكن وبمرور أقل من أسبوع تم القبض على العصابة، وأُثبتت براءة مروان..... ولكنه رفض العودة للعمل.

ودارت الأيام يتقلب مروان في عذابها وسوء الحظ يطالعه، وأخيراً استطاع خاله أن يؤمن له عملاً في فرن القرية الوحيد، وكان أطول عمل يمارسه مروان في حياته هو العمل في الفرن، حيث تأقلم بسرعة مع جو العمل، ووجد فيه الصحبة الطيبة التي أنسته سوء حظه، وما بين العجانة وبيت النار قضى مروان سحابة أيامه في الفرن. وبعد سنتين من العمل والاستقامة استطاع مروان بمساعدة كبيرة من خاله أن يبني بيتاً صغيراً، ثم عرض عليه خاله أن يزوجه من بنته الوسطى " بهيجة"، وراقت الفكرة لمروان، فقد كان يُكِنُ لبهيجة حباً خفياً منذ أيام الطفولة، وكانت بهيجة بدورها تُكِنُّ له مشاعر المودة والأعجاب. تم الزواج، وانتقل مروان مع عروسه إلى بيته الجديد، وظل مواظباً على العمل في الفرن، وكانت بهيجة زوجةً ممتازةً، ومدبرة منزلٍ قديرةٍ، استطاعت أن تغدق على زوجها الحب والحنان اللذين افتقدهما في طفولته، فكانت له زوجة وأماً وأختاً، والصدر الدافئ الذي يلقي في محرابه همومه ومتاعبه.

وعاش الزوجان في سعادةٍ رغم الفقر الذي كانا يعيشان تحت وطأته، وكان مروان إذا تبرم من ضيق العيش وشح الموارد والإمكانيات، سارعت بهيجة إلى التخفيف عنه ونصحه بالصبر الجميل، وكانت تقول له دائماً: ـ الصبر الصبر يا مروان، فما بعد الضيق إلا الفرج.

وخلال عمل مروان في الفرن كان يحلو له أن يترنم مغنياً بعض الأغاني الشعبية المنتشرة في القرية، ليخفف عنه من صعوبة العمل ورتابته، وكان زملاءه من العاملين يستمعون إليه مبدين إعجابهم بصوته الجميل، وكانوا يطلبون منه المزيد من الغناء كلما توقف عن الشدو، ويوماً بعد يوم، ونتيجةً لكثرة المديح الذي ينهال عليه، إكتشف أن صوته لا بأس به، وبدأ اهتمامه يزداد به، وأكثر من الغناء والترنم ، وحفظ المزيد من الأغاني، وأخذ بعضاً من رفاقه يحثه على احتراف الغناء والظهور في الحفلات الكثيرة التي كانت تملأ ليالي الصيف في القرية والقرى المجاورة.

وبمرور الأيام أخذت الفكرة تنخر في رأس مروان وتشغل تفكيره، ونقل فكرته لزوجته بهيجة التي لم تتحمس لها كثيراً، وطلبت من زوجها بكل رفق أن لا يفرط بعمله في الفرن، ولكن مروان الذي أخذت الرغبة تزداد في نفسه وتتعاظم في أن يصبح مطرباً معروفاً في كل القرى المحيطة، صمَّ أذنيه عن سماع توسلات زوجته، ودرس الأمر جيداً مع أحد أصدقائه الذي أوضح له بأن المطربين المشهورين يتقاضون عن الحفلة الواحدة أضعاف راتبه

الشهري في الفرن، وسال لعاب مروان عند ذكر النقود، وأصبح يملأ ساعات عمله في الفرن بأحلام اليقظة التي تصور له النعيم الذي سيعيش في كنفه عندما يصبح مطرباً مشهوراً.

وجاء اليوم الذي ظهر فيه مروان في أول حفلةٍ له، ونتيجة لوساطة صديقه مأمون له عند المختار، وافق الأخير على أن يكون مروان نجم الحفل الذي سيقيمه بسبب تسريح ابنه البكر من الجيش، ولكن موافقة المختار لم تأت إلا بعد أن استمع لصوت مروان وأعجب به.

وعند استلام مروان أول مبلغٍ له في حياته من وراء صوته، فرح به كثيراً ونقل فرحه إلى زوجته التي شاركته الفرحة الأولى.

وتقدمت الأيام بمروان، وأصبح معروفاً في القرية كمطربٍ شعبي يمتلك صوتاً شجياً، وأحيا بعض الحفلات التي عرفت به الناس أكثر، وصار المال الذي يتقاضاه من الحفلات يمنعه من مد يديه إلى الغير بالدين؛ وأخيراً ترك العمل في الفرن وسط احتجاجات بهيجة، بعد أن وجد أن هذا العمل لم يعد يليق به، وخصوصاً بعد سماعه تعليقاتٍ ساخرةٍ من بعض الشباب الذين وصفوه " بالمطرب الفرّان".

ولكن أحلام مروان التي كانت تعده بالشهرة والمال خيبت ظنونه، بعد أن ظن أن أبواب النجاح فتحت له مصراعيها تدعوه للولوج إلى عالم الرفاهية؛ فقد جاء الصيف يحمل معه الحفلات الكثيرة التي تقام في القرية والقرى المجاورة، ووجد مروانٌ نفسه كالقزم وسط العمالقة، وهؤلاء العمالقة هم نجوم الصيف المتألقون، الذيم كانوا يملؤون لياليه بأصواتهم وأغانيهم الجميلة، وكان مروان نفسه معجباً بهم ويردد أغانيهم دائماً، ولكنه الآن وجد نفسه نداً لهم، وصار يبحث لنفسه عن مكانٍ له بينهم، وبعد أن ظن أنه تسنم ذروة المجد، وجد نفسه فجأةً يهبط من شاهقٍ ليصطدم بالواقع المرّ، فها هي حفلات الزفاف الكثيرة قد أقيمت في أنحاء البلد، وقد أحياها المطربون الكبار، ولم يكن أحدٌ ليلتفت إلى مطربٍ ذي أمكانيات محدودة مثل مروان، من حيث الصوت البسيط والأغاني المكررة التي كان يحفظها، أو مما تسعفه به القريحة من بعض الأبيات الشعرية المغناة، وبالإضافة إلى كل ذلك، فلم يكن مروان يملك ذلك التاريخ الفني الذي يؤهله ليكون نجم حفلات الصيف الكثيرة، وكان ينظر بعين الحسرة ويعض على شفتيه من الألم الذي يكاد يكوي فؤاده، وهو يرى الناس يتقاطرون من كل حدبٍ وصوبٍ على منزل المطرب "الفلاني" الذي يبعد عن بيته بضعة أمتار، أو على منزل مطربٍ آخر في نفس القرية، ويقول معاتباً نفسه وهو يسمع صدى الحفلات التي تكثر في نهاية الأسبوع، حيث تتعالى أصوات مطربيها في نوعٍ من التحدي: ـ وماذا ينقصني حتى أكون نجم هذه الحفلات الأول؟ إن صوتي جميل وقوي بشهادة كل من سمعه، ولكن ما

ينقصني هو القريحة الشعرية التي لا أمتلكها بشكلٍ جيدٍ، فلم لا أستعين ببعض الشعراء المخضرمين ليمدونني ببعضٍ من شعرهم المغنى؟

ويضرب بكفه على فخذه مراراً وهو يقول بصوتٍ شبه مسموعٍ: ـ إيه .... أنا أنسانٌ فاشلٌ، محدود الطموح، ضيق الافق.

ويتنهد بحسرةٍ، فتنظر إليه زوجنه برثاء، وتقول له مواسيةً: ـ هون عليك يا مروان، لا بد وأن تفرج ... أنت مطربٌ حسن الصوت، ولكن ما ينقصك هو الدعاية التي تعرفك بالناس.

فيجيبها ساخراً: ـ عن أية دعايةٍ تتكلمين يا بهيجة؟ ... لقد زرت جميع متعهدي الحفلات وأسمعتهم صوتي، ووعدوني خيراً، ثم وبعد بضعة أسابيع طويلةٍ ومريرةٍ من الانتظار، يأتي أحدهم ويقول بصوتٍ مجلجلٍ وضاحكٍ: ـ جهز نفسك يا مروان .... عندك حفلةٌ غداً.

ـ حفلة؟ .... أين بالله عليك؟

ـ إيه إفرح يا رجل .... جاءك الفرج.

ويسعل سعالاً مصطنعاً قبل أن يقول: ـ عبد الفتاح نوري رزق أمسٍ بطفلٍ ذكر بعد سنواتٍ من الانتظار والترقب، وهو يودُّ أن يقيم حفلةٌ صغيرةٌ لأقربائه فوق سطح منزله .... وستكون أنت النجم بالطبع.

يزفر مروان بشدة، ثم يقول دون أن ينظر إلى عيني زوجته: ـ تصوري يا بهيجة .... حفلة صغيرة فوق سطح منزل لعددٍ محدودٍ من الناس، وبمناسبة مولودٍ جديدٍ، وتقولين لي دعاية .... أكرم بها من دعاية!

ويضيف حزيناً: ـ ... وفي نهاية الحفلة، وبعد أن يبح صوتي وتجحظ عيناي، وتتخاذل ركبتاي عن حملي، يلقون لي بمبلغ زهيد وكأنني اطلب حسنةً.

فتقول بهيجة برقة: ـ سُلم النجاح طويلٌ يا مروان، ويجب أن تصعده درجةً درجةً.

ولكن مروان قال بحنق: ـ آهٍ يا بهيجة .... أنا مطرب حفلاتٍ مغمور لا يعرفني أحدٌ خارج حدود القرية، كل حفلاتي أما بمناسبة مولودٍ جديدٍ ذكرٍ، أو بمناسبة ختان مولودٍ آخرٍ، أو بمناسبة نجاح الطالب الفلاني، أو تسريح الجندي العلاني من الجيش، وتأتي انت لتقولي لي دعاية، إنها ليست دعاية يا بهيجة .... إنها وشاية .... خبريني من سيقبل بمطرب حفلات أطفال ليحيي حفلة زفاف ابنه؟ .... قولي لي أرجوك.

تصمت بهيجة دون أن تجد ما تقوله، ولكنها وبعد ذلك ورغم الفقر لا تتخلى عن مروان أو تضيق به أو تتبرم من قلة حظه، بل ظلت إلى جانبه تواسيه وتسانده وتحاول بشتى الوسائل عن طريق معارفها من الأقرباء أن تجد لزوجها بعض الحفلات ليكون مطربها، وكانت توفق إلى ذلك في بعض الأحيان، ومع كل ذلك ظل زوجها المطرب المتواضع الذي تقتصر حفلاته القليلة على قريته فقط وبشكلٍ محدودٍ.

وفي أحد أيام الصيف، كان مروان مستلقياً على فراشه عند الظهيرة يحدق إلى سقف غرفته بعينين ساهيتين وهو يفكر بكيفية تسديد الديون الكثيرة المتراكمة في ذمته، وخطرت له خواطر كثيرةٍ كان أهمها هو أن يجد لنفسه عملاً آخر غير الغناء يدر عليه ما يقيته وزوجته؛ وألحت عليه فكرة العودة للعمل في الفرن، ولكنه كان ينحيها عن ذهنه كفكرةٍ مقرفةٍ، فهو يحس بنفسه صغيراً إن هو عاد للعمل في الفرن، وعليه في هذه الحال أن يتحمل سخرية زملائه العاملين معه. قدح زناد ذهنه مجدداً للخروج بحل لمشكلته، ولكن الحقيقة التي كان شبحها المخيف يطارده، هو أنه لا يحمل أية شهادةٍ دراسيةٍ، ولا يجيد أي عملٍ سوى الغناء الذي لم يعد عليه بما كان يرجوه منه.

وفي هذه الاثناء كانت بهيجة تقف في فناء المنزل تنشر الغسيل وهي شاردةٌ تفكر في مستقبلها ومستقبل زوجها الغامض، وتحاول بكل ما أوتيت من حيل أن تجد مخرجاً وحلاً يجعل من زوجها مطرباً مشهوراً يتردد إسمه على كل لسانٍ. وبينما هي غارقةٌ في أحلامها وآمالها ويداها تنشران الغسيل على الحبل، أحست بشيءٍ ينقض من السماء بسرعةٍ مذهلةٍ ويعلق في السترة التي كانت تنشرها على الحبل. ارتاعت للحظات وتراجعت خطوتين للوراء وعيناها المذعورتان عالقتان في السترة المتحركة على الحبل. أيقنت بعد لحظاتٍ أن شيئاً ما قد علق في السترة، سيما وأن السترة كانت ترتفع إلى الأعلى ثم تهبط بسرعةٍ، وكأن ما علق بداخلها يحاول أن يخلص نفسه منها. تمالكت أعصابها وتقدمت من الحبل، وقد عزمت على أن تلتقط السترة وتطبق على ما بداخلها، وقد تماثلت أمام عينيها صورة حمامةٌ كبيرةٌ، أو طيرٍ سمينٍ، وعزمت على أن تقبض عليه وهي تمني نفسها بغداءٍ دسمٍ تفاجىء به زوجها مروان؛ واستطاعت بسرعةٍ وجرأةٍ أن تطبق على السترة وتحكم إغلاق فتحتها العلوية، ثم تنشلها من على الحبل بقوةٍ وسرعةٍ جعلت ملاقط الغسيل تتطاير بعيداً.

كان الطير العالق داخل السترة ينتفض بعنف محاولاً أن يتخلص من مأزقه، ولكن بهيجة كانت من العناد والإصرار بحيث لم تتح له مجالاً ليخلص نفسه، يدفعها إلى ذلك أحلام معدتها ومعدة زوجها اللتين لم تذوقا طعم اللحم منذ زمنٍ بعيدٍ، فأحكمت قبضتها على السترة وقد قطبت ما بين حاجبيها وعضّت على شفتها السفلى كتعبيرٍ على العناد والإصرار؛ وبعد أن تأكدت من أن الطير المسكين قد أسلم نفسه لقدره المحتوم وأصبح لا حول له ولاقوةٍ، هرعت مسرعةً بصيدها إلى الداخل وهي تصيح بلهفةٍ وانفعالٍ: ـ مروان .... مروان .... تعال وانظر ماذا اصطدت.

وفوجئ مروان ـ الذي كان مستلقياً على ظهره يعاتب أقداره المتجهمة ـ بزوجته تقتحم عليه خلوته وهي تصيح:

ـ قم يا مروان ..... قم وانظر إلى هذا الطير الذي وقع على حبل الغسيل.

نظر إلى السترة المكورة وهي تتحرك بين يدي بهيجة، فقال بسرعة: . ـ ما هذا؟

ـ إنه طير.

ـ ومن أين أتيت به؟ ... وما هو هذا الطير؟

فابتسمت بهيجة وقالت: ـ أما نوعه فهو ما لا أعرفه، وأما من أين أتيت به، فلقد سقط من السماء بين الغسيل، ولا أدري كيف.

فقام مروان واقفاً وقد قطب ما بين حاجبيه كالمفكر، ثم وضع يديه على خاصرتيه ونظر إلى السترة ملياً، وقال وهو يمد يده بحذرٍ ليكشف عن الطير المحبوس داخل السترة: ـ ما هذا الطير يا ترى؟

استطاع أن يرى جناح الطير وجزءاً من منقاره، فقال باهتمام: ـ يبدو أنه طيرٌ جارحٌ يا بهيجة.

نظرت إليه بهيجة نظرةً قلقةً حائرةً وقالت: ـ أليس طيراً يصلح للأكل؟

فقهقه ضاحكاً وقال: ـ لا يا عزيزتي ..... لقد خاب فألك، فهذا الطير من الطيور الجارحة التي لا تؤكل.

ـ إذاً ماذا سنفعل به؟

فكر مروان قليلاً قبل أن يقول: ـ ربما نستطيع بيعه.

ـ وهل يباع؟

ـ نعم .... أقصد ربما ..... حسب نوعيته، فأنا أعرف ان بعض الطيور الجارحة تكون ذات قيمةٍ ماديةٍ لا بأس بها...

وسكت قليلاً، ثم قال وهو يحك ظهره: ـ على كل حال سأعرضه على صديقي ماهر ... إنه خبير بالطيور كما تعلمين، وهو يبيع ويشتري شتى انواع الطيور.

ـ هل تعتقد بأنه سيباع بمبلغٍ كبيرٌ؟

وقلب مروان شفته السفلى وقال: ـ ربما ربما .... ولكني سأبيعه على كل حال ولو بمائة ليرة.

وعند المساء زار مروان صديقه ماهر في منزله، ووجده فوق سطح المنزل يطعم الحمام. كان ماهر شاباً في الثلاثين من عمره، قصير القامة، منكوش الشعر، أسمر البشرة، تنتشر على وجهه بعض الشعيرات غير المنتظمة، وكان يعتمر على رأسه قبعةً قماشيةً لا لون لها.

وقال ماهر وهو ينظر إلى الطير الذي يقبع حزيناً في القفص الذي يحمله مروان: ـ ماذا أحضرت يا مروان؟

ـ كما ترى .... طيرٌ جارحٌ.

بدا الاهتمام على وجه ماهر وهو يرمق الطير ذا المخالب الحادة، والمنقار المعقوف، والريش الأغبر، بنظراتٍ فاحصةٍ، ثم قال بصوتٍ عميقٍ: ـ من أين حصلت عليه؟

فقال مروان ضاحكاً: ـ رزقٌ وقع من السماء على حبل الغسيل.

تقدم ماهر أكثر من القفص، ونظر بداخله ملياً، ثم أخذ يدور حوله وهو يتفحص الطير بعينين خبيرتين قبل أن يصيح بانفعال ممزوجٌ بالدهش: ـ إنه الطير الحر يا مروان ..... أقطع يداي إن لم يكن كذلك.

نظر إليه مروان بشكٍ وهمَّ أن يسأل، ولكن ماهر أسرع يقول بانفعال زائد: ـ إلا تدرك ذلك ... إنه الطير الحر يا صديقي.

ـ الطير الحر!

والحقيقة أن معلومات مروان عن الطير الحر لم تكن غزيرة، ولكنه كان يعلم بأن الطير الحر غالي الثمن، إن لم يكن مصاباً أو به علةٌ، وقال ماهر وقد التمعت عيناه ببريقٍ خاصٍ: ـ لقد جاءك الرزق يا مروان، هبط عليك من السماء على طبقٍ من ذهبٍ.

فقال مروان مازحاً: ـ بل هبط على حبل الغسيل.

ثم أضاف بلهجةٍ أكثر جديةٍ: ـ وكيف سنتأكد يا ماهر بأنه الطير الحر؟

فقال ماهر على الفور وعيناه عالقتان على الطير: ـ أتركها لي، فأنا أعرف بعض الناس الذين يميزون الطير الحر من بين كل الطيور.

ـ ومن هم هؤلاء يا ماهر؟ هل هم في القرية؟

ـ لا يا مروان، إنهم من قريةٍ مجاورةٍ، وغداً صباحاً سوف أذهب إليهم وأعرض الطير عليهم.

فأطرق مروان برأسه موافقاً.

وفي صباح اليوم التالي غادر ماهر القرية مصطحباً الطير، بينما بقي مروان في القرية ينتظر هو وبهيجة على نار الشوق والأماني والأحلام. وعند العصر عاد ماهر للقرية وهو يكاد يرقص طرباً، ولم يمض على وصوله سوى بضع دقائق حتى كان مروان يطرق بابه وهو يسأل بلهفةٍ: ـ ها يا ماهر ما الاخبار؟ ..... قمحٌ أم شعيرٌ؟

فأجاب ماهر والبسمة تضيء وجهه: ـ بل قمح ..... شوال قمح.

ـ إذاً؟

ـ أجل يا مروان .... إنه الطير الحر.

صفق مروان بكفيه من فرط الانفعال، وقال بمرح: ـ لله درك يا ماهر.... إنه أجمل خبر سمعته بحياتي على الإطلاق.

هز ماهر برأسه وقال بلهجةٍ جديةٍ: ـ هذا الطير ثمينٌ جداً يا صاحبي، وأنا عندي زبونٌ جاهزُ ... رجلٌ من الخليج مستعد أن يشتريه بمبلغٍ كبيرٍ.

فتسارعت دقات قلب مروان وقال بلهفةٍ: ـ وكم سيدفع؟

ـ لا أدري بالضبط .... ولكنه مبلغٌ كبيرٌ لن تستطيع جمعه أن ظللت طوال عمرك تنعق وتغني.

ـ وأين هذا الرجل يا ماهر؟ خذني إليه أرجوك.

فأطرق ماهر برأسه، وقال بهدوء: ـ نعم ... سيكون لك ذلك ..... ولكن بعد أن نتفق.

ـ نتفق على ماذا يا ماهر؟!

ـ على حصتي بالطبع.

ولم يفهم مروان بالضبط ما يعنيه ماهر، فهز رأسه بغباءٍ ثم قال: ـ حصتك في ماذا؟! .... انا صاحب هذا الطير.

فقال ماهر بحدة: ـ أفهم ذلك وأدركه جيداً، ولكن البيع سوف يتم عن طريقي ... هل وعيت ذلك.

وأدرك مروان ما كان ماهر يرمي إليه فقال بسرعةٍ: ـ آه .... طبعاً يا ماهر أنت شريكٌ في البيع ونصيبك محفوظ بلا ريب.

ـ حسناً إذاً .... لنكن عمليين ..... أنا سآخذ الثلث من ثمن الطير.

ـ ماذا! ... الثلث كثيرٌ يا ماهر.

ـ لا ليس كثيراً أمام المبلغ الذي سيدخل إلى جيبك.

ـ نعم .... ولكن الثلث كثيرٌ.

ـ أنت حرٌ يا مروان، ولكن اعلم أن الطير لن يشتريه أحدٌ منك، فلا أحدٌ يعرف قيمته الحقيقية.

ـ إذاً ...أعطيك الربع.

ـ لا .... الثلث يعني الثلث.

ولبث مروان صامتاً بضع لحظاتٍ وهو يفكر في عرض ماهر قبل أن يقول بتسليم: ـ على بركة الله إذاً .... أنا موافق.

وفي تلك الليلة لم يعرف النوم سبيلاً إلى جفني مروان وبهيجة، فقد كان التخيلات اللذيذة تدغدغ مشاعرهما طوال الليل، وتزين أفكارهما بمئات التصورات المشرقة، وكانت بهيجة أشد سعادةً من زوجها، فقد كانت هي التي عثرت على الطير بين الغسيل، إضافةً إلى أنها تشعر بالغبطة والسرور من أجل زوجها الذي كان يتعذب كثيراً في الآونة الأخيرة، بعد أن نفد المال من يديه، ووجد نفسه في مواجهة الدائنين الذين كانوا يطرقون بابه في كل حين.

وأخذت بهيجة تنظر بعيني خيالها إلى الأيام القادمة التي ستكون مشرقةً بلا ريبٍ، وتخيلت ماذا سيكون عليه الحال بعد أن يباع الطير، وفكرت ملياً قبل أن تقرر في سرها وتقول:

ـ (سأشتري غسالة أتوماتيك بدل الغسالة المعطوبة، وسأملىء البراد الخاوي بأطايب الطعام، وسأشتري ستائر جديدةً وسجادةً مخملية لغرفة الضيوف، ويجب عليَّ شراء ملابس جديدةً لي ولمروان، فالمسكين لا يملك سوى بنطالين قد أصابهما البلى، وقميصين يوشك أحدهما أن يلفظ أنفاسه الأخيرة... آه ... سأملىء البيت بكل جديدٍ، وسنعطي الدائنين حقهم، وستختفي من على وجه مروان آثار الغم والبؤس، ليحل محلها آثار النعمة والسرور).

وأما مروان، فقد كانت أحلامه تهيم به في عالمٍ آخرٍ، يختلف تماماً عن العالم الذي صنعته بهيجة في مخيلتها، وابتسم ابتسامةً راضيةً، والتمعت عيناه، وتنهد بنشوةٍ قبل أن يخلد للنوم.

وفي اليوم التالي انتشر خبر الطير الحر في كل أصقاع القرية وسط ذهول الجميع الذين كانوا يعتقدون بأن الحظ الجيد لن يصيب مروان أبداً؛ وأشيع بين الناس أن مروان قد اصطاد الطير الحر، وباعه إلى رجلٍ خليجي بمبلغ ضخمٍ لم يعدّه في حياته.

وقد لاحظ الجميع مدى التغيير الذي أصاب مروان وبهيجة، فقد اختفت من على وجه مروان ملامح البؤس والشقاء، وصار في كل يوم يلبس ثياباً جديدةً، ويدخن سجائر من نوعٍ ممتازٍ، وأضحى وجه بهيجة أنضر، وابتسامتها أوسع، ومن زارهما في منزلهما، شاهد بأم عينيه الترف الذي يعيشان في كنفه، فقد جُدد أثاث البيت، وطُليت الجدران بألوانٍ جديدةٍ، وأُدخلت إلى المنزل بعض الأدوات الكهربائية الحديثة التي يندر وجودها في بيوتات القرية.

وبعد شهرين تقريباً، شاهد الناس مروان درويش وهو يسير في طرقات القرية متأبطاً ذراع زوجته الجديدة.

إنتهت

قضاء وقدر

تململ في مقعده مراتٍ عديدةٍ وهو يضع السيجارة بين شفتيه ثم ينفخ دخانها كأنه ينفث من داخله أحزان السنين. كان يجلس قرب النافذة الواطئة، بينما كان المذياع الصغير يعلن عن الساعة السابعة مساءً.

أحس بالبرد يتسلل إلى عظامه وينخرها، والمطر المنهمر في الخارج أعطاه شعوراً بالوحدة والعزلة. أطفأ السيجارة بحركة عصبية، ومالبث أن أشعل واحدةً جديدةً، ثم أخذ ينظر إلى الخارج عبر زجاج النافذة المكسور، وأخذ يرقب المارة وهم يتراكضون إلى منازلهم هرباً من المطر الغزير الذي هاجم المدينة بغتةً، وغسل أبنيتها وطرقاتها وسطوح منازلها.

أحس بحاجته إلى شيء يعيد إليه هدوء أعصابه ورباطة جأشه، فعمد إلى أبريقٍ صغيرٍ ملأه ماءً من الصنبور الذي ينقط في الممشى المتصل مع غرفته العفنة، ثم عمد إلى إشعال جهاز الغاز، فوجده فارغاً تماماً، فأخذ يلعن حالته التعيسة بكل ما حفظته ذاكرته من مفردات ومصطلحات نابية التقطتها أذنه خلال سنوات حياة التشرد والبطالة التي عاشها، ثم عاد إلى مقعده وألقى بنفسه عليه بإحباط ويأس، ومن ثم أشعل سيجارته العاشرة وعاد يحدق في الطريق الذي خلا من العابرين. أغمض عينيه وهو يستند إلى مسند الكرسي الحديدي البارد، بينما كان الدخان يتصاعد بطيئاً، ثم يتبدد في جو الغرفة ليحيله إلى ما يشبه الضباب الموشك على الانقشاع.

أخذت أفكاره تتقاذفه، فتخيل جاره وصاحب الغرفة التي يستأجرها " أبا إياد " بسترته القديمة الباهتة، وبنطاله القصير الموشك على التمزق من الخلف، وقبعته البيضاء المائلة للصفرة والتي لا تغادر رأسه الأشيب؛ تخيله وهو يضحك ضحكته ذات الرنين الخبيث، بينما أصابعه تركز النظارة السميكة فوق أنفه الكبير.

البارحة مساءً ذهب إليه في دكانه المكتظ بالبضاعة، وكان أبو إياد جالساً وراء طاولته يدون بعض الديون في دفتره السميك. ألقى عليه السلام بصوت خفيض منكسر النبرات، مشبع بالذل والهوان والرجاء، ولكن أبو إياد انتفض كمن أصابه مس، وصاح به ساخراً: ـ أهلاً وسهلاً .... أهلاً بالأستاذ .... أهلاً بالأفندي، حمداً لله على قدومك بالسلامة.

ـ خيرٌ .... خيرٌ يا أبا إياد.

ـ ومن أين سيأتي الخير يا أخي وأنت تتهرب من ديونك وتتظاهر بأنك لا تراني إذا صادفتك عرضاً في أحد الشوارع.

لاذ بالصمت ولم يجب، واكتفى بأن غض طرفه وبلع لعابه اللزج، ثم سمع أبا إياد يقول:

ـ لعلك الآن جئت لتشتري بعض حاجياتك بالدين؟

ـ لا ... لم آت لهذا.

ـ إذاً لماذا جئت؟ هل جئت لتسدد ما بذمتك؟

فبلع ريقه بصعوبة، وأحس بصغر حجمه أمام لهجة الرجل الساخرة، والتي أخذت تقطع من نفسه، وتنخر في قلبه المترع بالهم والحزن واليأس، ولكنه استجمع هدوء أعصابه المتوترة وهو يجاهد ألا يفلت لسانه السليط من عقاله، وقال بشيء من الثبات والهدوء المرُّ: ـ لقد جئت طالباً منك إمهالي أسبوعاً واحداً فقط لدفع أجرةِ الغرفة عن الشهر الفائت، وتسديد الديون المتراكمة في ذمتي.

فزعق أبو إياد كمن سقطت على إحدى أصابع قدميه صخرة عملاقة، وقال بصوت يشبه صرير الباب التي صدأت مفاصله: ـ ماذا قلت؟ ... أسبوع؟! ... هل جننت؟!

فقال برجاء: ـ أرجوك يا أبا إياد... هي مهلة أسبوع واحد فقط، أنت تعرف أني غريب عن المدينة، ولا معين لي هنا سوى عملي المتواضع الذي لا يدر عليَّ إلا ما يسد الرمق.

فهدّأ أبو إياد من حدته قليلاً، وقال بحسمٍ وهو يشيح بوجهه جانباً: ـ هم ثلاثة أيام فقط ... وبعد ذلك.....

وانصرف بسرعة قبل أن يتابع أبو إياد جملته التقليدية التي تحمل بين كلماتها التهديد والوعيد؛ فهو يعرف تماماً تلك العصبة التي تلتف حول أبي إياد، المكونة من بعض الشباب العاطلين عن العمل، والذين هم مستعدون لتنفيذ ما يطلبه منهم لقاء علبة سجائر إذا اقتضى الأمر.

خرج من الدكان وأخذ يضرب في الشوارع على غير هدى وهو يلعن تلك الساعة التي حط فيها رحاله في هذه المدينة الواجمة، ثم وصل إلى غرفته وهو شبه محموم، وألقى بجسده إلى كرسيه البارد، ثم بدأت الأفكار تقفز إلى مخيلته، ولم يدرِ كيف قضى ليلته، ولكنه عند بزوغ الفجر كان قد قرر ما سيفعل، وقام متكاسلاً، ثم غسل وجهه المرهق بالمياه الباردة ولبس ملابس العمل، ولما لم يجد ما يأكله انطلق إلى عمله في ورشة الحدادة التي تقع في أقصى المدينة. قضى سحابة النهار وهو يعمل ويفكر في تلك الخطة الشيطانية التي هبطت عليه فجأة دون أن يعرف كيف استطاع الشيطان أن يقنعه بها، ولكنه أحس بأنها مخرجه الوحيد بعد أن أوجد لنفسه عشرات التبريرات والمسوغات.

كان معلم الورشة يرمقه بطرف عينيه متسائلاً عن سبب الوجوم البادي على وجهه المتعب، ثم قال له أخيراً:

ـ إن كنت تشعر بالتعب والإرهاق، فيمكنك أن ترتاح ما تبقى من النهار في منزلك.

ولم يعترض على كلام المعلم الطيب، بل غسل يديه ووجهه وشكر المعلم، ثم انطلق عائداً إلى غرفته وفي أذنيه ترن كلمة (منزلك) تسخر منه.

*****

أطفأ السيجارة بهدوء شديد، ثم ألقى نظرة أخيرة إلى الشارع، وقام على عجل وتناول سترته البالية وارتداها ثم خرج إلى الشارع يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

كانت حدة المطر قد ازدادت هذا المساء، وأخذت أضواء السيارات القليلة تلتمع على أرضية الشارع المبللة وتنعكس على وجهه وهو يمشي تحت الشرفات ليحتمي من المطر الغزير، ولما وصل دكان أبي أياد، فكر طويلاً طويلاً قبل أن ينفذ خطته، ثم تقدم من باب الدكان وهو يرتجف من الخوف، ونظر يمنة ويسرة. كان الشارع خالياً من البشر في هذا الوقت، وحانت منه التفاتة إلى الداخل فوجد أبا إياد وراء طاولته كعادته. مدَّ يده إلى جيب سترته الداخلي، ثم عاد ينظر حوله وقد انتابه شعور بأن جدران الشارع تراقبه وتنظر إليه لتكون شاهدةً على ما سيفعل، ولكنه كان قد حسم أمره فأخرج سكينه الصغير وتنهد بعمق، وفي هذه اللحظات انتابه شعور آخر، شعور غريب لا يدري ما هو مصدره، فدلف إلى الدكان وقد بدأ جسده ينتفض من الإثارة. نظر إلى جسد أبي إياد المكوم فوق الطاولة وهو يقف على عتبة الدكان، ثم دلف إلى الداخل بحذر ومدَّ يده بتردد وتناول معصم أبي أياد الأيسر. تراجع للخلف مذعوراً تاركاً الذراع تسقط على الطاولة كورقة شجر يابسة، وقد سيطر عليه الفزع والمفاجأة، وأخذ يتراجع ببطء وعيناه متجمدتان فوق الطاولة التي بدت له مخيفة، وظل يتراجع ـ كأنه مسلوب الإرادة ـ حتى صار خارج الدكان، وتعثرت قدماه بشيء ما فسقط على الأرض، ثم قام وأخذ يعدو كالمجنون في الشوارع شبه الفارغة، يسقط تارة ويقوم تارة أخرى، وأخذ يركض على غير هدىً وهو يفكر في جثة أبي إياد الهامدة.

إنتهت